

حيرة أعيان المتكلمين

الأسباب والمآلات -دراسة وصفية تحليلية-

**The confusion of the great practitioners of the
Kalam: causes and consequences: A descriptive and
analytical study**

إعداد:

د/ صالح بن يوسف بن عبد الرحمن الدويش

الأستاذ المساعد بقسم العقيدة في كلية العقيدة والدعوة بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة

Preparation :

**Dr. Saleh bin Youssef bin Abdul Rahman Al-Dawish
Assistant Professor in the Department of Doctrine at the
College of Doctrine and Da'wah at the Islamic University of
Medina**

Email: ssaleeeh15@gmail.com

مستخلص البحث

لقد كان للكلام تأثير بالغ على هذه الأمة، والكلام: ما أحدثه المتكلمون من إثبات العقائد بالطرق العقلية التي ابتكروها، وأعرضوا بها عمّا جاء في الكتاب والسنة، وقد اعترف كبار المتكلمين في نهاية أمرهم بتملك الحيرة لهم، واستيلاء الشكوك عليهم، وفقدانهم اليقين والاستقرار والطمأنينة في المطالب التي أفنوا أعمارهم في تحصيلها، وهو ما يُعد خلاصة تجاربهم وأبحاثهم، وذلك جرّاء تعلم علم الكلام والإقبال عليه، ومن تبحر في الكلام ازداد حيرة واضطراباً، حتى ندم بعضهم على سلوك هذه الطريقة، والناظر فيما وصل إليه المتكلمون من هذه الحيرة، والمتأمل في حكايتهم وما شهدوا به على أنفسهم؛ يجد أنّ لذلك أسباباً أوصلتهم إلى هذه الحيرة، ومن أبرز هذه الأسباب: الاستغراق في العقليات، وتكافؤ المعقولات، والتشويش بإيراد الاعتراضات، وإهمال الأدلة الشرعية، والبعد عن طريقة السلف الصالح، وقد كان لهذه الحيرة مآلاتها على المتكلمين، حتى انتهى بعضهم في آخر أمره إلى دين العجائز، فيقر بما أقروا به، ويعرض عن تلك الدقائق، وهو منتهى ما يحصلونه بعد الكد والجهد، إضافة إلى ذم الكلام، والتحذير من الاشتغال به، وهجره، وهذا خلاف المعهود في جميع العلوم.

الكلمات المفتاحية: (الحيرة - المتكلمون - أهل الكلام - العقليات - المآلات).

Abstract

Al Kalam (Speculative theology) had a profound impact on this community. *Al Kalam* refers to the methods developed by those who are known as *Mutakallimun* (*practitioners of Kalam*) to affirm doctrines and creedal beliefs through rational approaches they innovated, while turning away from what was stated in the *Qur'an* and *Sunnah*. The greatest *Mutakallimun* have confessed at the end of their lives that uncertainty and confusion invaded them, doubts dominated them, and that they had lost certainty, stability, and tranquillity in the goals for which they had spent their lives trying to achieve. This represents the conclusion of their experiences and research, resulting from their learning of the science of *Kalam* and their engagement with it. And whoever deepens in the science of *Kalam* will increase in confusion and instability, to the point where some of them regretted adopting this methodology. Whoever observes the confusion which the *Mutakallimun* have reached, and meditates on the facts they relate on their own stories, and what they have witnessed about themselves, will see that this has causes that have led them to this confusion. Among the most important of these causes is the excessive use of rational reasoning, the similarity of rational arguments, the disturbance caused by the mention of objections, the neglect of Islamic proofs, and the distancing from the methodology of the pious predecessors. This confusion had consequences for *Mutakallimun*, to the point where some of them adopted at the end of their lives the religion of elderly women, affirming what they affirm and leaving all these details and precisions, and this is the pinnacle of what they achieve after toil and effort. Additionally, there is the blame of the *Kalam*, the warning against indulging in it, as well as calls to abandon it, which is contrary to what is usual with other sciences.

Keywords: (Confusion, *Mutakallimun*, practitioners of *Kalam*, rational reasoning, Consequence).

المقدمة

الحمد لله البر الرحيم، العليم الخبير، الذي أنزل الكتاب، ولم يجعل له عوجاً، ولا عنه بدلاً، وجعل كتابه مع سنة المصطفى هدى للمتقين، وطريقاً للعارفين، وسبباً أصيلاً في رسوخ العلم وتحقيق اليقين، وتحصيل الثبات والاستقرار، والجزم والتصميم، وذلك أعلى درجات الإيمان، وأعظم أسباب الفلاح والصلاح، "ولا يتم صلاح العبد في الدارين إلا باليقين والعافية"^(١)، حتى لا تضعفه الشبهات، ولا تؤثر فيه المحدثات، ومنزلة اليقين "من الإيمان بمنزلة الروح من الجسد؛ به تفاضل العارفون، وفيه تنافس المتنافسون، وإليه شمرّ العاملون... فاليقين رُوح أعمال القلوب؛ التي هي أرواح أعمال الجوارح، وهو حقيقة الصديقية، وهو قطب هذا الشأن الذي عليه مداره"^(٢)، وذلك من أعظم النعيم، ومن أسباب تحصيل السعادة في هذه الحياة الدنيّة، فـ "ليس في الدنيا نعيم يُشبهه نعيم الآخرة: إلا نعيم الإيمان والمعرفة"^(٣).

هذا وقد ظهر في خلوف^(٤) هذه الأمة من استبدل هذا النبع الأصيل، والمورد العذب الصافي المعين بنتاج وكّد البشر؛ حتى راموا الجزم وتحصيل اليقين بطريق العقول وكّد الأذهان، والتعمق في تحصيل ما لا يمكن تحصيله بالنظر العقلي القاصر، وهؤلاء هم أهل الكلام؛ فإنهم قد استغنوا بالكلام -على تلك المناهج والتراتب العقلية التي وضعوها- عن طريقة الشرع المنزل -وهم في ذلك بين مستقل ومستكثر-، فكان مآل ذلك ما لا تحمد عاقبته، وترجى مغيبته.

فقد أخرج ابن بطة -رحمه الله- بسنده، عن عبيد الله بن حنبل -رحمه الله-، قال: حدثني أبي قال: سمعت أبا عبد الله -وهو الإمام أحمد- يقول: "عليكم بالسنة والحديث، وينفعكم الله به، وإياكم والخوض، والجدال، والمراء؛ فإنه لا يفلح من أحب الكلام، وكل من أحدث كلاماً لم يكن آخر أمره إلا إلى بدعة؛ لأنّ الكلام لا يدعو إلى خير.

(١) ابن القيم، "زاد المعاد"، ٤ : ١٩٧.

(٢) ابن القيم، "مدارج السالكين"، ٢ : ٣٧٤.

(٣) ابن تيمية، "مجموع الفتاوى"، ٢٨ : ٣١.

(٤) الخلوف: الجماعة الخلف، وهم القوم يخلفون من كان قبلهم. انظر: ابن دريد الأزدي، "جمهرة

اللغة"، ١ : ٦١٥.

ولا أحب الكلام، ولا الخوض، ولا الجدال، وعليكم بالسُّنن والآثار والفقه الذي تنتفعون به... وعاقبة الكلام لا تؤول إلى خير، أعاذنا الله وإياكم" (١).

وقال -رحمه الله- مبيناً خطورة الكلام على صاحبه في المال: "لا يُفلح صاحب الكلام أبداً، ولا تكاد ترى أحداً نظر في الكلام إلا وفي قلبه دغل" (٢).

فالعاقبة التي يؤول إليها أرباب الكلام لا تكون خيراً بحال؛ بل ذلك من أعظم وأشد ما يُبتلى به العبد، وفي هذا روى أبو القاسم التيمي -رحمه الله- بسنده، عن يونس بن عبد الأعلى، عن الشافعي -رحمهم الله تعالى- أنه قال: "لأن يُبتلى المرء بما نهى الله عنه، خلا الشرك بالله، خير له من أن يُبتلى بالكلام" (٣).

وجاء عنه كذلك أنه قال: "ما ارتدى أحد بالكلام فأفلح" (٤).

وهذه العاقبة التي تحصل لهؤلاء ولا بد؛ يشهد لها أساطين أهل الكلام، وفي هذا يقول أبو حامد الغزالي -رحمه الله- وهو ممن خبر الكلام وقلاه وعرف محصله وخباياه (٥): "أكثر الناس شكاً عند الموت: أهل الكلام" (٦)، ولا يُنبئك في هذا مثل خبير به.

وقال عن هذا العلم: "أما مضرته: فإثارة الشبهات، وتحريك العقائد، وإزالتها عن الجزم والتصميم؛ فذلك مما يحصل في الابتداء، ورجوعها بالدليل مشكوك فيه"، ثم عقب: "وأما منفعته: فقد يظن أن فائدته كشف الحقائق ومعرفتها على ما هي عليه؛ وهيهات، فليس في الكلام وفاء بهذا المطلب الشريف، ولعل التخبيط والتضليل فيه أكثر من الكشف والتعريف... فأسمع هذا ممن خبر الكلام ثم قلاه بعد حقيقة الخبرة، وبعد التغلغل فيه إلى منتهى

(١) انظر: ابن بطة، "الإبانة"، ٢: ٥٣٩.

(٢) انظر: ابن عبد البر، "جامع بيان العلم وفضله"، ٢: ٩١٤.

(٣) انظر: "الإبانة"، ٢: ٥٣٤؛ أبو القاسم التيمي، "الحجة في بيان المحجة"، ١: ١١٥.

(٤) انظر: "جامع بيان العلم وفضله"، ٢: ٩١٤؛ أبو الفضل المقرئ، "أحاديث في ذم الكلام وأهله"، ص: ١٠٣، "الحجة في بيان المحجة"، ١: ٢٢٤.

(٥) كما وصف نفسه بذلك؛ وسيأتي هذا الوصف في سياق كلامه اللاحق.

(٦) نقله عنه ابن تيمية في: "مجموع الفتاوى"، ٤: ٢٨، ٥: ١١.

درجة المتكلمين، وجاوز ذلك إلى التعمق في علوم آخر تناسب نوع الكلام، وتحقيق: أن الطريق إلى حقائق المعرفة من هذا الوجه مسدود^(١).

وقال واصفاً هذا المشهد بأجلى إشارة وأخصر عبارة: "فقس عقيدة أهل الصلاح والتقوى من عوام الناس بعقيدة المتكلمين والمجادلين؛ فترى اعتقاد العامي في الثبات: كالطود الشامخ؛ لا تحركه الدواهي والصواعق، وعقيدة المتكلم الحارس اعتقاده بتقسيمات الجدل: كخيطة مرسل في الهواء؛ تفيئه الرياح"^(٢).

قال ابن أبي العز الحنفي -رحمه الله- معلقاً بعد أن نقل كلامه المتقدم: "وكلام مثله في ذلك حجة بالغة"^(٣)، ولا ريب في ذلك.

والفخر الرازي وهو من أعظم من أوغل في العقليات، ونافع عنها غاية المنفعة، وحاز قصب السبق في علم الكلام، وبعد أن جعل العقل هو المقدم والأصل وعليه المعول^(٤)، قال في في أواخر ما صنّف: "منتهى العقول: ظنون وحسابات، وأوهام وخيالات"^(٥)، ولا شك أن هذه شهادة خبير عرف نهاية العقول وما تؤول إليه، وكلامه في ذلك سيأتي لاحقاً.

وقال التقي السبكي -وهو ممن خبر الكلام وعرف أهله-: "وليس على العقائد أضر من شيئين: علم الكلام، والحكمة اليونانية، وهما في الحقيقة علم واحد... والسالم من ذلك كله: ما كان عليه الصحابة، والتابعون، وعموم الناس الباقون على الفطرة السليمة، ولهذا كان الشافعي ينهى عن الاشتغال بعلم الكلام"^(٦).

(١) "قواعد العقائد"، ص: ١٠١.

(٢) "المصدر السابق"، ص: ٧٨.

(٣) "شرح العقيدة الطحاوية"، ص: ١٧٤.

(٤) وذلك في عامة تصانيفه التي صنّفها في نصرة الكلام وهي كثيرة جداً؛ ومن أهمها: "أساس التقديس"، وقد تصدى لهذا الكتاب ابن تيمية في: "بيان تلبيس الجهمية"؛ وكذلك في "المحصل"؛ و "المحصل"؛ و "معالم أصول الدين" وغيرها من مصنفاته.

(٥) "ذم لذات الدنيا"، ص: ٢٥٢.

(٦) "السيف الصقيل"، ص: ٢٠-٢١.

ولهذا لما ذكر التفتازاني أسباب تسمية الكلام بهذا الاسم ذكر أموراً عدّة؛ من جملتها: شدّة تأثيره على القلب وتغلغله فيه، فسمي بالكلام المشتق من (الكلم) أي: الجرح^(١)، ولا ريب؛ فالكلام يجرح القلب، وجرحه للقلب سلباً وليس إيجاباً، وهذا ما يشهد له حالهم في العاقبة والمآل، فقد "بيّن أهله الذين ابتلوا به ما فيه من أضرار، وندموا على ما حصل منهم من شغل الأوقات فيه من غير أن يظفروا بطائل، ولا أن يصلوا إلى حق، وفي نهاية أمرهم صاروا إلى الحيرة والتّدم، فمنهم من وفق لتركه واتباع طريقة السلف، وجاء عنهم عيب علم الكلام وذمّه... بل والمبالغة في ذمه، ولا ينبئك مثل خبير"^(٢).

وقد أحسن البشير الإبراهيمي -رحمه الله- في قوله: "وإذا نحن وازنا بين ما أجدها علينا علم الكلام وبين ما خسرناه بسببه وجدنا الخسارة تربو على الربح"^(٣). ولست هنا في مقام جمع كلام السلف والأئمة، وشهادات أعيان الكلام وأساطين النظر العقلي في عاقبة هذا العلم على أهله وروّاده؛ فإنّ ذلك كثير ويطول به المقام، وليس هذا موردّه في هذه المقدمة التعريفية؛ ولكني أسلط الضوء في مستهلها على عاقبته التي انتهت إليها نظار هذا العلم، وهي: الحيرة والتردد والارتباب، وعدم اليقين والرسوخ والاستقرار والثبات، وهذه الحيرة نتاج وعاقبة علم الكلام على أهله؛ "بشهادات من خبرهم، وشهاداتهم على أنفسهم"^(٤) كما سيأتي.

حتى أخبر "الواقف على نهايات إقدامهم بما انتهى إليه من مرامهم، حيث يقول:

لعمري لقد طفت المعاهد كلها وسيرت طريقي بين تلك المعالم

(١) انظر: "شرح العقائد النسفية"، ص: ١١، وسيأتي الإشارة إلى هذه الأسباب في "المبحث الأول".

(٢) عبد المحسن العباد، "قطف الجنى الداني"، ص: ٣٠-٣١.

(٣) "آثار الإمام مُجّد البشير الإبراهيمي"، ١: ١٦٧.

(٤) انظر: ابن تيمية، "درء التعارض"، ١: ١٦٨.

فلم أر إلا واضعاً كف حائر على ذقنٍ أو قارعاً سِنَّ نادماً^(١).

ومن تأمّل في هذا المقام حق التأمل يجدُ "النتيجة التي اتفق عليها كلُّ من السلف، وحقّاق المتكلمين ومنصفهم، والصوفية والمتفلسفة: أنّ علم الكلام لا يورث اليقين كما يُدعى؛ بل يزرع الشك ويوقع في الحيرة"^(٢)، وهذا "أمر يجدونه في أنفسهم، ويشهده الناس منهم، وشواهد ذلك أعظم من أن تذكر"^(٣).

قال ابن القيم -رحمه الله-: "أهل الكلام أكثر الناس تناقضاً واضطراباً؛ فإنهم ينفون الشيء ويثبتون ملزومه، ويثبتون الشيء وينفون لازمه، فتتناقض أقوالهم وأدلتهم، ويقع السالك خلفهم في الحيرة والشك، ولهذا يكون نهاية أمر أكثرهم: الشك والحيرة، حاشى من هو في خفارة بلادته منهم، أو من قد خرق تلك الخيالات، وقطع تلك الشبهات، وحكّم الفطرة، والشرعة، والعقل المؤيد بنور الوحي عليها؛ فنقدها نقد الصيارف فنفى زغلها، وعلم أنّ الصحيح منها: إمّا أن يكون قد تولت النصوص بيانها، وإمّا أن يكون فيها غنية عنه بما هو خير منه وأقرب طريقاً وأسهل تناولاً، ولا يستفيد المؤمن البصير بما جاء به الرسول العارف به من المتكلمين سوى مناقضة بعضهم بعضاً، ومعارضته، وإبداء بعضهم عوار بعض، ومحاربة بعضهم بعضاً، فيتولى بعضهم محاربة بعض، ويسلم ما جاء به الرسول ﷺ"^(٤).

وقال الشوكاني -رحمه الله-: "اعترف كثير من هؤلاء المتكلفين (يعني: المتكلمين) بأنّه لم يستفد من تكلفه وعدم قنوعه بما قنع به السلف الصالح إلا مجرد الحيرة التي وجد عليها غيره من

(١) ابن تيمية، "الفتاوى الحموية"، ص: ١٩١.

وقائل هذه الأبيات، والمخبر بحال المتكلمين في النهايات هو "أبو الفتح الشهرستاني" في كتابه "نهاية الإقدام في علم الكلام" ص: ٦، قال ابن تيمية -رحمه الله- عندما ذكر هذه الأبيات في موضع آخر: "مع أنّه كان من أخبر هؤلاء المتكلمين بالمقالات والاختلاف، وصنّف فيها كتابه المعروف: بنهاية الإقدام". انظر: "منهاج السنة النبوية"، ٥: ٢٦٩.

(٢) عيسى النعمي، "القوادح السلفية في مشروعية علم الكلام"، ص: ٥٦٤. (مجلة الدراسات العقديّة، العدد: ٣٠، محرم: ١٤٤٤هـ).

(٣) ابن تيمية، "مجموع الفتاوى"، ٤: ٢٧.

(٤) "طريق المهجرتين"، ص: ٢٣٧.

المتكلمين" (١).

ولم أرَ بحسب اطلاعي وبعد النظر والتتبع في مظان هذا الموضوع المهم من أفردته يبحث مستقل؛ يجلي فيه هذه الحيرة، ويبين أسبابها، ومآلاتها ونتائجها على المتكلمين، ويجمع كلام الأئمة وشهادات أعيان المتكلمين في ذلك.

ولهذا عزمت على جمعه ووسمته بـ (حيرة أعيان المتكلمين، الأسباب والمآلات - دراسة وصفية تحليلية-)، والله أسأل العون والتوفيق والسداد.

أهمية الموضوع، وأسباب اختياره:

ترجع أهمية هذا الموضوع وأسباب اختياره إلى أمور عدة؛ من أخصها ما يأتي:

١. ممّا لا شك فيه أنّ دراسة عواقب ومآلات العلوم العقلية من الأهمية بمكان ولاسيما لغير المختصين؛ الذين قد يحسنون الظن بهذه العلوم، ويظنون فيها الرسوخ واليقين، والتميز لأهلها عن غيرهم، وربما فضلها بعضهم على الكتاب والسنة.
٢. عناية المحققين من أهل العلم بهذه النتيجة والعاقبة الوخيمة التي يؤول إليها علم الكلام، وينتهي إليها المتكلمون في نهاية الحال، ومن أكثر من رأته أولى هذا الموضوع بالعناية والاهتمام وأورد فيه من الشواهد وفصل الكلام: شيخ الإسلام ابن تيمية، ثم تلميذه ابن القيم، ومن بعدهم ابن الوزير -رحمهم الله جميعاً- وغيرهم، وكلامهم في ذلك مبسوط وكثير، وذلك من أبين الأمور على خطورة هذه العلم، وأثره فيما بعد على أهله.

٣. من خلال هذا الموضوع والنظر في عواقب الكلام؛ يتجلى وهن هذا العلم، وأنه في حقيقة الأمر أوهن من بيت العنكبوت، أو كما قال العارف بالكلام والبصير بأهله، وهو يصف عقيدة المتكلم: (وعقيدة المتكلم الحارس اعتقاده بتقسيمات الجدل: كخيطة مرسل في الهواء؛ تفيئه الرياح، مرة هكذا، ومرة هكذا) (٢).

(١) "التحفي في مذاهب السلف"، ص: ٤٧.

(٢) الغزالي، "قواعد العقائد"، ص: ٧٨.

٤. جمع شهادات المتكلمين على أنفسهم، وشهادات الأئمة عليهم بالاضطراب والحيرة، وبيان أسباب ذلك، ومآلاته؛ من الأهمية بمكان للمتخصص.

٥. دراسة العواقب والمآلات التي يؤول إليه الكلام بأهله وجه بليغ من أوجه الرد على المخالف، وبيان لسبب من أهم أسباب الذم السلفي لعلم الكلام وأهله.

٦. لم أجد من أفرد هذا الموضوع -مع أهميته كما سبق- بالدراسة والبيان.

خطة البحث:

قبل الشروع في تفاصيل هذا البحث أبين الخطة التي سرت عليها؛ حيث جاء البحث على مقدمة تعريفية ذكرت فيها: افتتاحية البحث، وأهمية الموضوع، وأسباب اختياره، وخمسة مباحث، وخاتمة، وفهارس، وذلك كما يأتي:

المبحث الأول: التعريف بعلم الكلام وسبب تسميته بذلك.

المبحث الثاني: ذم السلف للكلام وعلة ذلك.

المبحث الثالث: التعريف بالحيرة.

المبحث الرابع: حيرة أعيان المتكلمين.

المبحث الخامس: أسباب حصول الحيرة لدى المتكلمين.

المبحث السادس: مآلات الحيرة على المتكلمين.

الخاتمة؛ وذكرت فيها أهم النتائج التي توصلت إليها من خلال هذا البحث، ثم أتبع ذلك بفهرس المصادر والمراجع.

منهج البحث:

سلكت في هذا البحث المنهجين: الوصفي والتحليلي، والتزمت بجمع المادة العلمية المتعلقة بالبحث، وتحليلها، متبعاً الآتي:

١. جمع المادة العلمية المتعلقة بالبحث، وتوزيعها على المباحث والمطالب.

٢. بيان موضع الآيات القرآنية بالسورة، ورقم الآية، وكتابتها بالرسم العثماني.

٣. نسبة الأقوال إلى قائلها، وتوثيقها من مصادرها.

٤. عزو الآثار الواردة في البحث إلى مصادرها في كتب السنن والآثار.
 ٥. شرح الكلمات الغريبة وعزوها إلى مظانها في كتب اللغة، وغريب الحديث.
 ٦. وضع الخاتمة، وتشتمل على أهم النتائج التي توصل إليها البحث.
- والله أسأل التوفيق والسداد، وأن يجعله خالصاً لوجهه الكريم، نافعاً للقارئ، والحمد لله أولاً وآخراً، وظاهراً وباطناً.

المبحث الأول: التعريف بعلم الكلام، وسبب تسميته بذلك

من الأمور الظاهرة لدى المطلع على كتب الكلام تأخر ظهور التعريف بعلم الكلام من قِبَل أهله، ولعل من أكثر التعريفات شهرةً ورواجاً تعريف العضد الإيجي؛ حينما عرّف الكلام بقوله: "علم يقتدر معه على إثبات العقائد الدينية؛ بإيراد الحجج، ودفع الشُّبه" ^(١)، وقريب منه تعريف ابن خلدون؛ بقوله: "علم يتضمّن الحجاج عن العقائد الإيمانيّة بالأدلة العقلية" ^(٢)، وتعريف التفتازاني: "العلم بالقواعد الشرعية الاعتقادية المكتسب من أدلتها اليقينية" ^(٣)، فهو علم مختص بالعقائد الدينية، من جهة الشرح والتقرير، والحجاج لها، والدفاع عنها، من خلال البراهين اليقينية؛ وهي القواطع العقلية ^(٤)، "وجملة القول: إنّ المتكلمين متفقون على أنّ علم الكلام يعتمد على النظر العقلي في أمر العقائد الدينية" ^(٥)، فقد "اعتمد علماء الكلام منذ البداية -من حيث الطريقة أو المنهج-: الحجج والبراهين العقلية في إثبات العقائد الدينية، والدفاع عنها إزاء هجوم المنكرين لها، وبذلك وجد علماء الكلام أنفسهم بحاجة لاتباع سبل المجادلة المنطقية، فكانوا بذلك من أوائل المطلعين على الفلسفة الأرسطية؛ وخصوصاً المنطق، آلة هذه الفلسفة" ^(٦).

فحقيقة علم الكلام: "ما أحدثه المتكلمون في أصول الدين من إثبات العقائد بالطرق التي ابتكروها، وأعرضوا بها عمّا جاء الكتاب والسنة به" ^(٧).

فالكلام "حقيقة عرفية فيمن يتكلم في الدين بغير طريقة المرسلين" ^(٨)، وهذا مقصود السلف والأئمة في ذم الكلام وأهله في تضاعيف كلامهم، ف "مرادهم بأهل الكلام: من تكلم

(١) "المواقف"، ص: ٧.

(٢) "المقدمة"، ص: ٥٨٠.

(٣) "شرح المقاصد"، ١: ٢٩.

(٤) انظر: ابن تيمية، "مجموع الفتاوى"، ٢: ٧-٨.

(٥) مصطفى عبد الرزاق، "تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية"، ص: ٢٦٤.

(٦) إبراهيم شمس الدين، في مقدمته على "شرح المقاصد"، ١: ١٤.

(٧) ابن عثيمين، "فتح رب البرية"، ص: ٩٥.

(٨) "مجموع الفتاوى"، ١٢: ٤٦١.

في الله بما يخالف الكتاب والسنة"^(١).

والمتكلمون هم الطوائف الذين اعتمدوا علم الكلام منهجاً في الاعتقاد -تقريباً وشرحاً وحجاً ودفاعاً-، وأشهرهم: الجهمية، والمعتزلة، والكلابية، والأشعرية، والماتريدية، وأكثرهم تأليفاً وتصنيفاً وشهرة: المعتزلة، والأشاعرة، ويلحق بأهل الكلام كل من شاركهم في هذا العلم من الطوائف^(٢).

وقد ذكر التفتازاني في مقدمة شرحه على "العقائد النسفية" أسباب تسمية علم الكلام بهذا الاسم، وذكر في ذلك جملة من الأوجه؛ منها: كون عنوان مباحث هذا العلم قولهم: الكلام في كذا وكذا، أو: لأنَّ مسألة الكلام كانت أشهر مباحثه، وأكثرها نزاعاً وجدالاً، أو: لأنَّ هذا العلم يورث القدرة في تحقيق الشرعيات وإلزام الخصوم؛ كالمنطق للفلسفة، أو: لأنَّه أول ما يجب من العلوم التي تعلم وتتعلم بالكلام، أو: لأنَّه إنما يتحقق بالمباحثة وإدارة الكلام من الجانبين، أو: لأنَّه مبني على الأدلة القطعية المؤيد أكثرها بالسمعية، أو: لقوة أدلته صار كأنَّه الكلام دون ما عداه من العلوم، أو: لأنَّه أشد العلوم تأثيراً في القلب وتغلغلاً فيه، فسمي بالكلام المشتق من الكلم؛ أي: الجرح، وهذا هو كلام القدماء^(٣)، وفي ذلك أقوال أخرى^(٤).

ومعظم هذه الأسباب دعاوى بلا بينة وبرهان، ومن نظر في كلام المتقدين -لاسيما أئمة السلف الصالح- يجد أنَّ الكلام أطلق على سبيل الذم؛ لا على سبيل الثناء والمدح والإعجاب، كما وظفه أهل الكلام فيما بعد، وسمي هذا العلم بالكلام وأهله بالمتكلمون؛ لأنَّهم تكلموا فيما سكت عنه الشرع، وخاضوا في كلام لم يتكلم فيه السلف الأوائل^(٥).

(١) ابن تيمية، "درء التعارض"، ١: ١٧٨.

(٢) انظر: "مجموع الفتاوى"، ٢: ٨.

(٣) انظر: "شرح العقائد النسفية"، ص: ١٠-١١.

(٤) انظر: الإيجي، "المواقف"، ص: ٨-٩؛ التفتازاني، "شرح المقاصد"، ١: ٢٨؛ التهانوي، "كشف

"كشف اصطلاحات الفنون"، ١: ٢٩.

(٥) انظر: "تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية"، ص: ٢٦٧.

المبحث الثاني: ذم السلف والأئمة للكلام وعلة ذلك

صنّف العلماء كتباً عديدة في ذم الكلام وذم أهله، ومن تلك المصنفات: "ذم الكلام وأهله"؛ لأبي إسماعيل الهروي، و"ذم الكلام وأهله"؛ لأبي عبد الرحمن السلمي، و"تحريم النظر في كتب الكلام"؛ لابن قدامة المقدسي، و"الغنية عن الكلام وأهله"؛ لأبي سليمان الخطابي، و"صون المنطق والكلام"؛ للسيوطي، كما أورد كثير من الأئمة هذه الآثار في الكتب المسندة والمطولة؛ كـ "الشرعية"؛ للآجري، و"الإبانة"؛ لابن بطة، و"شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة"؛ للالكائي، و"شرف أصحاب الحديث"؛ للبغدادلي وغير هذه المصنفات، وقد جاء عن السلف والأئمة ومنهم الأئمة الأربعة التشديد في ذم الكلام، والتحذير منه، والنهي عنه، والتحذير من أهل الكلام والجدال، ومن مجالستهم، والنظر في كلامهم، ووصفهم بالبدعة والضلالة، بل والزندقة، ووصف الكلام بالباطل، وهذا محل إجماع السلف والأئمة، حتى قال ابن عبد البر المالكي -رحمه الله-: "أجمع أهل الفقه والآثار من جميع الأمصار: أنَّ أهل الكلام أهل بدع وزيف، ولا يعدون عند الجميع في طبقات الفقهاء"^(١).

والناظر في علة الذم السلفي للكلام يجد أسباب ذلك ظاهرة؛ عند أدنى تعاظمي لكتب الكلام، والنظر في حال أهله وما وصلوا وانتهوا إليه، فإنَّ الكلام من أعظم أسباب تبُّع المتشابهات، وتوليد المعارضات، التي تفضي بأهلها إلى الشكوك والاضطرابات والحيرة^(٢)، ولما يقعون فيه من المغالطات والسفسطة، وما أدى إليه الكلام من الاختلاف والنزاع والفرقة في الدين، وما يؤدي إليه من ترك العمل المشروع، والانشغال بالجدل المذموم^(٣).

قال ابن تيمية -رحمه الله- في عقد نفيس: "ولهذا تجد من تعود معارضة الشرع بالرأي لا يستقر في قلبه الإيمان، بل يكون كما قال الأئمة: إنَّ علماء الكلام زنادقة، وقالوا: قل أحد

(١) "جامع بيان العلم وفضله"، ٢: ٩٢٤.

(٢) والبحث هنا معني بإظهار (حيرة المتكلمين) التي ينتهون إليها في نهاية المال؛ كما سيأتي.

(٣) انظر في تفصيل هذا الموضوع: لطف الله خوجه، "علة ذم السلف لعلم الكلام"، ص: ٥٨١ وما بعدها. (مجلة الدراسات العقدية، العدد: ٣١، رجب: ١٤٤٤هـ).

نظر في الكلام إلا كان في قلبه غل على أهل الإسلام، ومرادهم بأهل الكلام: من تكلم في الله بما يخالف الكتاب والسنة.

ففي الجملة: لا يكون الرجل مؤمناً حتى يؤمن بالرسول إيماناً جازماً؛ ليس مشروطاً بعدم معارض، فمتى قال: أؤمن بخبره إلا أن يظهر له معارض يدفع خبره؛ لم يكن مؤمناً به، فهذا أصل عظيم تجب معرفته؛ فإنَّ هذا الكلام هو ذريعة الإلحاد والنفاق^(١).

(١) "درء التعارض"، ١: ١٧٨.

المبحث الثالث: التعريف بالحيرة

حَيْرَة: مصدر حار، والحيرة: التردد، والاضطراب، والارتباك، وعدم الاهتداء، ويقال: تحير في أمره: إذا ارتبك، وتحير في طريقه: إذا ضل، واحتار فلان: ضل سبيله ولم يهتد للصواب؛ فهو حيران، ورجل حائر بائر: إذا لم يتجه لشيء؛ كالحائر الذي يتردد فيه الماء إذا امتلأ، والطريق المستحير: الذي يأخذ في عرض مفازة لا يُدرى أين منفذه^(١).

قال ابن فارس -رحمه الله-: "الحاء والياء والراء: أصل واحد، وهو التردد في الشيء، من ذلك الحيرة، وقد حار في الأمر يحير، وتحير يتحير، والحير والحائر: الموضع يتحير فيه الماء"^(٢). وقال ابن منظور -رحمه الله-: "حير: حار بصره يحار حيرة وحيراً وحيراناً، وتحير: إذا نظر إلى الشيء فغشي بصره، وتحير واستحار وحار: لم يهتد لسبيله، وحار يحار حيرةً وحيراً: أي تحير في أمره، وحيرته أنا فتحير، ورجل حائر بائر: إذا لم يتجه لشيء"^(٣).

وفي محكم التنزيل؛ قال الله تعالى: ﴿كَأَلْذِي أُسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانَ﴾ [سورة الأنعام: ٧١]، أي: أضلته، فهو حائر بائر، ومتردد في الأمر؛ لا يهتدي إلى مخرج منه^(٤).

"والحيران: المتردد بين شيئين؛ لا يدري كيف يفعل"^(٥).

قال الطبري -رحمه الله- في تفسير الآية: "حيران؛ فإنه "فعالان" من قول القائل: قد حار فلان في الطريق؛ فهو يحار فيه حيرةً وحيراناً وحيرورة، وذلك إذ ضل؛ فلم يهتد للمحجة"^(٦).

(١) انظر: الفراهيدي، "العين"، ٣: ٢٨٨؛ الأزهرى، "تهذيب اللغة"، ٥: ١٤٩؛ الجوهري،

"الصحاح"، ٢: ٦٤٠؛ الزبيدي، "تاج العروس"، ١١: ١١٥.

(٢) "مقاييس اللغة"، ٢: ١٢٣.

(٣) "لسان العرب"، ٤: ٢٢٢.

(٤) انظر: البغوي، "معالم التنزيل"، ٢: ١٣٤.

(٥) السمعاني، "تفسير القرآن"، ٢: ١١٦.

(٦) "جامع البيان"، ١١: ٤٥١.

وسبب ذلك: الإعراض عن طريق الحق وطريق الهدى، وفي هذا يقول السُّدِّي -رحمه الله-: "يقول: مثلكم إن كفرتم بعد الإيمان: كمثل رجل كان مع قوم على الطريق، فضل الطريق، فحيرته الشياطين، واستهوته في الأرض، وأصحابه على الطريق، فجعلوا يدعونه إليهم، يقولون: ائتنا؛ فإننا على الطريق، فأبى أن يأتيهم. فذلك مثل من يتبعكم بعد المعرفة بمحمد ﷺ، ومحمدٌ الذي يدعو إلى الطريق، والطريق هو الإسلام"^(١).

فمعنى الحيرة إذن يعود إلى: التردد والاضطراب، وحالة الشك والارتياب، وحصول الارتباك والالتباس، وعدم الاهتمام إلى الطريق القويم.

(١) "المصدر السابق"، ١١: ٤٥٢.

المبحث الرابع: حيرة أعيان المتكلمين

إنَّ المتأمل في حال المتكلمين وأساطين النظر وأرباب الجدل العقلي ليجد أن من أعظم ما خلفه علم الكلام على أعيانه هو زعزعة اليقين، وذهاب الرسوخ، والتردد والاضطراب، واستيلاء الحيرة عليهم، ويصف هذا الخبير بحالهم، وهو الغزالي - رحمه الله - بقوله: "وينبغي أن يحرس سمعه من الجدل والكلام غاية الحراسة؛ فإنَّ ما يشوشه الجدل أكثر ممَّا يمهده، وما يفسده أكثر ممَّا يصلحه؛ بل تقويته بالجدل تضاهي ضرب الشجرة بالمدقة من الحديد؛ رجاء تقويتها بأن تكثر أجزائها؛ وربما يفتتها ذلك ويفسدها؛ وهو الأغلب، والمشاهدة تكفيك في هذا بياناً، فناهيك بالعيان برهاناً... وعقيدة المتكلم الحارس اعتقاده بتقسيمات الجدل: كخيطة مرسل في الهواء؛ تفيئه الرياح، مرة هكذا، ومرة هكذا"^(١).

وقد "اعترف أساطين علم الكلام بتملك الحيرة لهم، واستيلاء الشك عليهم، وفقدانهم اليقين والطمأنينة في المطالب التي أفنوا أعمارهم فيها"^(٢)؛ فإنَّهم طلبوا الجزم واليقين من الطرق التي تُورث الشك والعمه، وتُعقب التيه والحيرة، ولم يلزموا طريق الهداية الخالص؛ الذي بعث الله به رسله - عليهم الصلاة والسلام -.

وفي هذا المعنى يقول ابن تيمية - رحمه الله - بعد أن أورد كثيراً من الشواهد والنماذج على شك المتكلمين، واضطرابهم، واستيلاء الحيرة عليهم: "ولو جمعت ما بلغني في هذا الباب عن أعيان هؤلاء كفلان وفلان لكان شيئاً كثيراً، وما لم يبلغني من حيرتهم وشكهم أكثر وأكثر.

وذلك: لأنَّ الهدى هو فيما بعث الله به رسله - عليهم السلام -، فمن أعرض عنه لم يكن مهتدياً، فكيف بمن عارضه بما يناقضه، وقدم مناقضه عليه!

والمقصود هنا: التنبيه على أنه لو سوغ للناظرين أن يعرضوا عن كتاب الله تعالى، ويعارضوه بآرائهم ومعتقداتهم؛ لم يكن هناك أمر مضبوط يحصل لهم به علم ولا هدى.

(١) "قواعد العقائد"، ص: ٧٧-٧٨.

(٢) الصمادي، "موافقة مناهج المتكلمين وعقائدهم لما ذمه الله من المناهج والعقائد"، ٢: ٧٧٩.

فإنَّ الذين سلكوا هذه السبيل كلهم يحبر عن نفسه بما يوجب حيرته وشكه، والمسلمون يشهدون عليه بذلك.

فثبت: بشهادته وإقراره على نفسه، وشهادة المسلمين -الذين هم شهداء الله في الأرض-: أنَّه لم يظفر من أعرض عن الكتاب، وعارضه بما يناقضه ييقين يطمئن إليه، ولا معرفة يسكن بها قلبه^(١).

وقال ابن القيم -رحمه الله- في تقرير هذا الموضع بكلام جامع: "إنَّ نهاية أمر هؤلاء المعارضين لنصوص الوحي بالرأي: انتهاؤهم إلى الشك، والتشكيك، والحيرة في أمرهم، فتجدهم يشكون في أوضح الواضحات، وفيما يجزم عوام الناس به، ويتعجبون ممَّن يشك فيه!". ثمَّ أعقب بقوله: "ولا تُعطيك كتبهم وبحوثهم إلا الشك، والتشكيك، والحيرة، والإشكالات، وكلما ازدادت فيها إمعاناً: ازدادت حيرة... وقد أقرؤا على أنفسهم: بالشك، وعدم اليقين... كما تقدَّم حكاية ذلك عن أفاضلهم ورؤوسهم.

حتى قال بعضهم عند موته: والله ما أدري على ماذا أموت عليه... وهذا باب طويل، من أراد الوقوف عليه فليطالع أخبار القوم وسيرتهم، وما أقرؤا به على أنفسهم^(٢).

ولهذا تجد "كبار المتكلمين الذين تعمَّقوا في علم الكلام، ودرسوه، وسبروا غوره، وحققوا مسائله بزعمهم، اعترفوا في نهاية أعمارهم -وهو ما يُعد خلاصة تجاربهم وأبحاثهم-: أنَّهم وقعوا في حيرة واضطراب؛ جرَّاء تعلم علم الكلام، والإقبال عليه^(٣).

وقد ذكر د. جابر إدريس حيرة المتكلمين؛ وذلك بعد توغلهم في العقليَّات وغوصهم فيها، وتقديمها على الوحي المنقول واتباع الرسول، ثمَّ قال: "وقد شهد المتكلمون على أنفسهم بالحيرة، وعدم اليقين؛ في كتبهم، وعند موتهم، وندم بعضهم على سلوكه طريق المتكلمين...

(١) "درء التعارض"، ١: ١٦٦-١٦٨.

(٢) "الصواعق المرسلة"، ٤: ١٢٦٣.

(٣) "وليد باصمد، "أثر علم الكلام على المنتسبين إليه"، ص: ٢٧٧.

فمن خاض في علم الكلام المذموم نهايته: الحيرة، والشك، والاضطراب؛ كلما تبحر فيه ازداد شكاً وحيرة"^(١).

وهم في هذه الحيرة على درجات متفاوتة، وأحوال مختلفة، وصنوف متباينة؛ فمن أوغل في العقليّات، ودخل في لبّ الفلسفات، وخاض بحارها، وغرق في أعماقها، طالباً للوصول من طريقها إلى درجات التحقيق لم يكن كغيره في ذلك؛ كما شهدوا بذلك، وحكوه عن أنفسهم؛ "فالذين خلطوا الفلسفة بالكلام: كثر اضطرابهم، وشكوكهم، وحيرتهم؛ بحسب ما ازدادوا به من ظلمة هؤلاء المتفلسفة"^(٢)، ولهذا تتفاوت آثار الحيرة عليهم بحسب ذلك.

وهذا لا تجده عند المعظم للوحي والمتبع للرسول الكريم ﷺ؛ فإنّهم من أعظم الناس يقيناً ورسوخاً وثباتاً واستقراراً وطمأنينة، حتى عند عامتهم؛ فضلاً عن علمائهم وأئمتهم وأهل البصيرة فيهم.

وقد أشار إلى هذا المعنى أبو محمد ابن قتيبة -رحمه الله- في أوائل كتابه: "تأويل مختلف الحديث"^(٣)؛ لما ذكر أهل الحديث والسنة والأثر، وأهل الكلام والرأي والجدل، ووصف أعمالهم وأقوالهم في ذلك؛ بما يُبين للناظر ولكل أحد: أنّ أهل الحديث هم أهل الحق والثبات واليقين والاستقرار، وأنّ أولئك هم أهل الشك والضلال والحيرة والاضطراب وعدم الثبات^(٤).

ولا أدل على ذلك من صنيع أبي القاسم البلخي الكعبي -وهو ممّن انتهت إليه رئاسة المعتزلة في زمانه-؛ فإنه لما ذكر أهل القبلية وعدّهم، ذكر العامّة وجمهور الأمة، وأنهم لا يدخلون في هذه الخلافات والعقليات الكلامية، وأنهم يثبتون لله تعالى الكمال وينفون عنه المماثلة، ولا يخوضون في الدقائق التي غاص فيها أهل النظر، وأنهم -أي العامة- أكثر هذه الأمة عدداً، ثمّ قال بعد أن حكى ذلك: "هنيئاً لهم السلامة"^(٥).

(١) "منهج السلف والمتكلمين في موافقة العقل للنقل"، ٣: ٩٥١، ٩٦٨.

(٢) ابن تيمية، "منهاج السنة النبوية"، ٣: ٢٨٨.

(٣) انظر: "تأويل مختلف الحديث"، ص: ٦١، ١٢٧.

(٤) أشار إلى نحو هذا عن ابن قتيبة الدينوري -رحمه الله-: ابن تيمية في "مجموع الفتاوى"، ٤: ٥٣.

(٥) "كتاب المقالات ومعه عيون المسائل والجوابات"، ص: ٢٢٠-٢٢١.

وقد نقل ابن الوزير - رحمه الله - كلام البلخي المتقدم، ثم قال معلقاً بعد ذلك: "وقد تقدّم قول شيخ الاعتزال أبي القاسم البلخي في العامة: هنيئاً لهم السلامة، وهو من هذا القبيل؛ بل فيه إشارة إلى وصف أهل النظر بالخطر... ولا يعدل السلامة شيء، نسأل الله السلامة"^(١).

قال ابن القيم - رحمه الله -: "ولهذا تجد قلوب أصحاب الأدلة السميّة: مطمئنة"^(٢) بالإيمان بالله، وأسمائه وصفاته، وأفعاله... لا يضطربون في ذلك، ولا يتنازعون فيه، ولا يعرض لهم الشك عند الموت، ولا يشهدون على أنفسهم، ويشهدون على غيرهم بالحيرة والوقوف... فمتى رأيت أصحاب الأدلة السميّة؛ يقول أحدهم عند الموت: نهاية إقدام العقول عقال؟! عقال؟!

أو يقول: لعمرى لقد طفت المعاهد كلها؟!

أو يقول: فيك يا أغلوطة الفكر؟!

أو يقول: والله ما أدري على أي عقيدة أموت!!

إلى أضعاف ذلك من أحوال أصحاب الشُّبه العقلية"^(٣).

وفي هذا يقول ابن تيمية - رحمه الله - في موازنة دقيقة: "إنّك تجد أهل الكلام: أكثر الناس انتقالاً من قول إلى قول، وجزماً بالقول في موضع وجزماً بنقيضه وتكفير قائله في موضع آخر، وهذا دليل عدم اليقين... وأمّا أهل السنة والحديث: فما يُعلم أحد من علمائهم، ولا صالح عامتهم رجع قط عن قوله واعتقاده؛ بل هم أعظم الناس صبراً على ذلك؛ وإن امتحنوا بأنواع المحن، وفتنوا بأنواع الفتن...

وبالجملة: فالثبات والاستقرار في أهل الحديث والسنة؛ أضعاف أضعاف ما هو عند أهل

(١) "العواصم والقواصم"، ٤ : ٦٦.

(٢) الطمأنينة: سُكون القلب إلى الشيء، وثباته، واستقراره، ووثوقه به، وهذا لا يكون إلا مع اليقين؛ بل هو اليقين بعينه. انظر: ابن القيم، "الصواعق المرسلّة"، ٢ : ٧٤١.

(٣) "الصواعق المرسلّة"، ٢ : ٧٤١-٧٤٢.

الكلام والفلسفة"^(١).

وحيرة أعيان المتكلمة قديمة متجددة من ظهور الكلام ولم تزل ملازمة لهم؛ ومن أوائلهم في الحيرة والاضطراب مُقدّمهم: الجهم بن صفوان، صاحب الجدل والخصومات والمرء العقلي، ومؤسس الجهمية، وهي أقدم الفرق الكلامية العقلية، وقد كان للجهم أثر بالغ في انحراف من جاء بعده وتأثر بنهجه العقلي، "فكان الناس في عافية وسلامة فطرة، حتى نبغ جهم فتكلم في الباري تعالى وفي صفاته؛ بخلاف ما أتت به الرسل -عليهم السلام-، وأنزلت به الكتب، نسأل الله السلامة في الدين"^(٢).

وقد ذكر الإمام أحمد -رحمه الله- حيرة الجهم بسبب مناظراته ومجادلاته وخصوماته، ومن ذلك مناظرته للسمنية^(٣)، قال -رحمه الله-: "فكان ممّا بلغنا من أمر الجهم عدو الله: أنه كان من أهل خرسان -من أهل ترمذ- وكان صاحب خصومات وكلام، وكان أكثر كلامه في الله تعالى، فلقي أناساً من المشركين، يقال لهم: السمنية، فعرفوا الجهم؛ فقالوا له: نكلمك فإن ظهرت حجتنا عليك دخلت في ديننا، وإن ظهرت حجتك علينا دخلنا في دينك... (وذكر المناظرة وما وقع فيها له)، فتحيّر الجهم؛ فلم يدر من يعبد أربعين يوماً!"^(٤)، وبقي متردداً حائراً في شك واضطراب وجهل، ولم يعرف ربه ومعبوده، كما ذكر في ترجمته.

ومن ذلك ما حصل لأبي الحسن علي بن إسماعيل الأشعري -رحمه الله- حينما عاش برهة من عمره على الاعتزال، وكان قد حصله من طريق شيخه وزوج أمه أبي علي محمد بن عبد الوهاب الجبائي -رأس من رؤوس معتزلة البصرة-، وقد بلغ الأشعري النهاية في معرفة مقالات

(١) "مجموع الفتاوى"، ٤: ٥٠-٥١؛ وينظر للمزيد: "مجموع الفتاوى"، ٤، ٤٣-٤٥.

(٢) الذهبي، "تاريخ الإسلام"، ٣: ٣٨٩.

(٣) السُّمْنِيَّة: بضم السين، نسبة إلى سومنات في الهند، من الطوائف الوثنية، يكذبون بالأخبار والنبوات، ولا يؤمنون إلا بالחסوسات، ويقولون بقدوم العالم، وبالتناسخ. انظر: البغدادي، "الفرق بين الفرق"، ص: ٢٥٣، ٣٤٦؛ الإسفراييني، "التبصير في الدين"، ص: ١٤٩.

(٤) "الرد على الجهمية والزنادقة"، ص: ٩٣-٩٤؛ وانظر كذلك: البخاري، "خلق أفعال العباد"، ص: ٣٠؛ الملطي، "التنبيه والرد"، ص: ٩٩؛ ابن تيمية، "بيان تلبيس الجهمية"، ٢: ٣٢٩، ٣: ٤٤٦؛ "مجموع الفتاوى"، ٤: ٢١٨؛ ابن القيم، "اجتماع الجيوش الإسلامية"، ٢: ٢٠٦، ٢٢٤.

المعتزلة، ولم يزل كذلك وهو في مجادلةٍ ومخاصمةٍ ومنازعةٍ في العقليّات؛ حتى لشيخه وأستاذه في الكلام، وقد انتهى به المطاف بعد ذلك إلى الحيرة والاضطراب، وكانت هذه الحيرة -بعد كثرة الأسئلة وورود المعارضات العقلية بينه وبين شيخه الجبائي- سبباً رئيساً في تركه وهجره للاعتزال، وإعلانه لمخاصمة المعتزلة ومعاداتهم.

وقد ذكر حاله أبو القاسم ابن عساكر، ومما ذكر في ذلك: أنَّ أبا الحسن لما تبخَّر في الاعتزال، وبلغ فيه الغاية، كان يُورد الأسئلة والمعارضات على أستاذه في الدرس، ولا يجد فيها جواباً شافياً، ثمَّ قال ابن عساكر معقّباً: "فتحير في ذلك، فيُحكى عنه أنه قال: وقع في صدري في بعض الليالي شيءٌ ممَّا كنت فيه من العقائد، فقامت وصليت ركعتين، وسألت الله تعالى أن يهديني الطريق المستقيم..."، "ثمَّ غاب عن الناس في بيته خمسة عشر يوماً، فبعد ذلك خرج إلى الجامع، فصعد المنبر وقال: معاشر الناس إني إنما تغيت عنكم في هذه المدة لأني نظرت؛ فتكافأت عندي الأدلة، ولم يترجح عندي حق على باطل، ولا باطل على حق، فاستهديت الله -تبارك وتعالى- فهداني إلى اعتقاد ما أودعته في كتيبي هذه، وانخلعت من جميع ما كنت أعتقده كما انخلعت من ثوبي هذا، وانخلع من ثوب كان عليه ورمى به..."^(١)، ومما قاله في جامع البصرة، وقد نادى بأعلى صوته: "من عرفني فقد عرفني، ومن لم يعرفني فأنا أعرفه بنفسي..." (وساق بعض ما كان يعتقد من الكلام على طريقة المعتزلة)، وأنا تأتب مقلع، معتقد للرد على المعتزلة، مخرج لفضائحهم ومعائبهم"^(٢).

وكذلك ما حصل لأبي المعالي الجويني، وهو عمدة النظار المتأخرين في المذهب الأشعري، عندما تكلم في مسألة من مسائل الصفات، وذكر العلو والفوقية، وتخطب فيها على طريقة المتكلمين، سأله أبو جعفر مُحمَّد بن الحسن الهمداني، عن هذه الضرورة التي يجدها الداعي في قلبه حين الدعاء، يجد قلبه لا يلتفت يمناً ولا يسرة، وإنما يقصد العلو والفوقية، فبكى الجويني،

(١) ابن عساكر، "تبيين كذب المفتري"، ص: ٣٨-٣٩.

(٢) ابن خلكان، "وفيات الأعيان"، ٣: ٢٨٥.

وأعلن الحيرة والدهشة، ونزل من المنبر ولم يجب، وهو يقول: "يا حبيبي الحيرة الحيرة، والدهشة الدهشة"، وكان بعد ذلك يقول كما ذكر أصحابه: "حيرني الهمذاني"، يرددها ويكررها^(١).

ومما اشتهر عنه في آخر حياته أنه قال: "ركبت البحر الخضم، وغصت في الذي نهي عنه أهل الإسلام، كل ذلك في طلب الحق، وكنت أهرب في سالف الدهر من التقليد، والآن فقد رجعت عن الكل إلى كلمة الحق، عليكم بدين العجائز؛ فإن لم يدركني الحق بلطف برة، وإلا فالويل لابن الجويني!"^(٢)، وقال في وصيته المتأخرة: "لا تشتغلوا بالكلام؛ فلو عرفت أن الكلام يبلغ بي ما بلغ ما تشاغل به"^(٣).

وأعظم من ذلك وأظهر وأبين ما وقع وتحصل لأبي حامد الغزالي، وهو من كبار حذاقهم، وقد سلف قوله: "أكثر الناس شكاً عند الموت: أهل الكلام"، وقد انتهى إلى الحيرة والشك والوقف^(٤)، وكثر عنه في مصنفاته ذم الكلام، والتحذير منه؛ لما فيه من الخطر على عامة الناس، وقد تقدّم شيء من ذلك عنه^(٥).

وقد ذكر عنه نفسه في كتابه "المنقذ من الضلال" أنه كان في حيرة من أمره، وحيرة في عقيدته، وتنقل من الشك في المحسوسات إلى الشك في العقليات^(٦).

(١) انظر: ابن تيمية، "بيان تلبيس الجهمية"، ١: ٥٠؛ الذهبي، "العلو للعلي الغفار"، ص: ٢٥٩.

(٢) انظر: ابن الجوزي، "تلبيس ابليس" ص: ٧٧؛ السبكي، "طبقات الشافعية الكبرى"، ٥: ١٨٥.

(٣) انظر: "المصدر السابق"، نفس الصفحة؛ ابن الوزير، "الروض الباسم"، ٣: ٣٤٨.

(٤) انظر في ذلك: ابن تيمية، "درء التعارض"، ١/١٦٢-١٦٣؛ "مجموع الفتاوى"، ٤/٧٢؛ ابن أبي

العز، "شرح الطحاوية"، ص: ١٧٧.

(٥) وانظر للاستزادة: "قواعد العقائد" ص: ٧٧ وما بعدها؛ "إلجام العوام عن علم الكلام" ص: ٨١

وما بعدها.

(٦) "المنقذ من الضلال"، ١٠٩-١١٧؛ وانظر: "بيان تلبيس الجهمية"، ٦: ١٢٥؛ "شرح العقيدة

الأصفهانية"، ص: ١٥٩؛ "مجموع الفتاوى"، ٢: ٥٤؛ ابن الوزير، "العواصم والقواصم"، ٢:

١٠١؛ المعلمي، "القائد إلى تصحيح العقائد"، ص: ٧٢، ٢١٠.

وما وقع لأبي عبدالله مُحمَّد بن عمر الرازي، وهو من كبار النُّظار المتأخرين من المتكلمين، وكان "كثير الاضطراب جداً، لا يستقر على حال، وإنما هو بحث وجدل، بمنزلة الذي يطلب؛ ولم يهتد إلى مطلوبه"^(١)، وهو "رأس في الذكاء والعقليَّات، لكنه عريٌّ من الآثار، وله تشكيكات على مسائل من دعائم الدين: تورث حيرة"^(٢)، حتى وصفه بعض الفلاسفة بقوله: "متحير في مذاهبه التي يتخبط بها خبط عشواء"^(٣)، وكثر في كلامه ما يدل على ذلك، ولا سيما في رسائله وتصانيفه المتأخرة، وقد شهد في آخر مطافه العقلي أنَّ المطالب العالية الشريفة لا يمكن تحصيلها بطريق العقول المجردة والبعيدة عن نور الوحي، وفي ذلك يقول: "وأما اللذات العقلية: فلا سبيل إلى الوصول إليها، والقرب منها، والتعلق بها"، وقال: "لقد تأملت الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية: فما رأيتها تشفي غليلاً، ولا تروي غليلاً"، ثمَّ يُعقب: "واعلم: أنَّي بعد التوغل في هذه المضائق، والتعمق في الاستكشاف عن أسرار هذه الحقائق، رأيت الأُصوب والأصلح في هذا الباب: طريقة القرآن العظيم، والفرقان الكريم"، وفي ذلك قال أبياته الشهيرة وفيها:

نهاية إقدام العقول عقال وغاية سعي العالمين ضلال

إلى قوله:

ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا سوى أن جمعنا فيه قيل وقالوا^(٤).

(١) ابن تيمية، "مجموع الفتاوى"، ٦: ٥٥.

(٢) الذهبي، "ميزان الاعتدال"، ٣: ٣٤٠.

(٣) وهو الشهرزوري في "نزهة الأرواح"، ١: ١٤٦؛ وانظر للمزيد في ذلك عن غيره: الذهبي، "تاريخ

الإسلام"، ١٥: ٢٥٢.

(٤) انظر: الرازي، "ذم لذات الدنيا" ص: ٢٦٠ وما بعدها؛ ابن تيمية، "مجموع الفتاوى"، ٤: ٧٣،

٧٣، ١٠: ٥، "درء التعارض"، ١: ١٦٠-١٦١؛ ابن القيم، "اجتماع الجيوش الإسلامية"، ٢:

٣٠٥، "الصواعق المرسلّة"، ١: ١٦٧.

وقال في وصيته الشهيرة وهي مدونة لدى كثير ممن ترجم له: "اختبرت الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية فما رأيت فيها فائدة تساوي الفائدة التي وجدتها في القرآن العظيم؛ لأنه يسعى في تسليم العظمة والجلال بالكلية لله تعالى، ويمنع عن التعمق في إيراد المعارضات والمناقضات، وما ذاك إلا العلم بأنّ العقول البشرية تتلاشى وتضمحل في تلك المضايق العميقة، والمناهج الخفية"^(١).

قال ابن تيمية -رحمه الله- في تعليق نفيس: "وأجل من يعتمدون كلامه هو أبو عبد الله محمد بن عمر الرازي إمام هؤلاء المتأخرين... المعروف: بابن خطيب الرّي، الإمام المطلق في اصطلاح المقتدين به من أهل الفلسفة والكلام، المقدم عندهم على من تقدّمه من صنفه في الأنام... وإنّ الرازي أتى في ذلك من نهاية العقول والمطالب العالية، بما يعجز عنه غيره من ذوي الإقدام، حتى كان فهم ما يقوله عندهم هو غاية المرام، وإن كان فضلاؤهم مع ذلك معترفين بما في كلامه من كثرة التشكيك في الحقائق، وكثرة التناقض في الآراء والطرائق، وأنّه موقع لأصحابه في الحيرة والاضطراب، غير موصل إلى تحقيق الحق، الذي تسكن إليه النفوس وتطمئن إليه الألباب"^(٢).

وابن أبي الحديد البغدادي -وهو من أعيان المعتزلة- "أصابه مرض الشك والحيرة نتيجة معارضته صحيح المنقول بشبهاته العقلية؛ حتى اعترف أنّ العقول لا تستفيد من السفر إلى طلب المعقولات إلا الحيرة"^(٣)؛ "فإنّ له أشعاراً تدل على ما وصل إليه من الحيرة بعد خمسين عاماً من البحث الكلامي"^(٤)، وهي أبيات متعددة يشكي منها لوعة الحيرة^(٥)، ومنها قوله:

(١) انظر: السبكي، "طبقات الشافعية الكبرى"، ٨: ٩٠-٩١.

(٢) "بيان تلبس الجهمية"، ٨-١١.

(٣) جابر إدريس، "منهج السلف والمتكلمين في موافقة العقل للنقل"، ٣: ٩٦٦.

(٤) "موافقة مناهج المتكلمين وعقائدهم لما ذمه الله"، ٢: ٨٠١.

(٥) انظر: ابن أبي الحديد، "شرح نهج البلاغة"، ١٣، ٥٠-٥٢؛ ابن تيمية، "درء التعارض"، ١:

١٦١؛ ابن القيم، "الصواعق المرسلة"، ٢، ٦٦٧؛ ابن الوزير، "العواصم والقواصم"، ٦: ١٢٣.

طلبتك جاهداً خمسين عاماً فلم أحصل على برد اليقين

وقوله:

فيك يا أغلوطة الفكر حار أمري وانقضى عمري
سافرت فيك العقول فما رجحت إلا أذى السفر

وقوله:

فضللت في تيهٍ بلا علم وغرقت في يَمٍ بلا سفن
ورجعت صفر الكفِّ مكتئباً حيران ذا همٍ وذا حزن

وغيرها من أبياته المشهورة التي دونها؛ وفيها "يعترف بأنَّ المعقولات لم تعطه إلا حيرة، وأنه لم يصل منها إلى يقين ولا علم"^(١)، فهذا حظه ونصيبه من السفر العقلي الطويل؛ لم يربح منه إلا الأذى والتحيرُ والعمه، "ولو سافرت عقول المتكلمين إلى كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ لرجعت ظافرة بالحق والهدى واليقين"^(٢).

وقد ذكر ابن القيم -رحمه الله- حال أحد أعيان المتكلمين، وهو قريب من حال من سبقه منهم، وكان طالباً للوصول إلى الحقائق من طريق الكلام، ثمَّ قال: "وقد سافر في طلب ربه على هذه الطريق؛ فلم يزد إلا حيرة، وبعداً من مطلبه، حتى قيض الله له من أخذ بيده، وسلك به على الطريق التي سلك عليها الرسل -عليهم السلام- وأتباعهم، فجعل يهتف بصوته لأصحابه: هلمُّوا فهذه والله الطريق، وهذه أعلام مكة والمدينة، وهذه آثار القوم لم تنسخها الرياح، ولم تزلها الأهوية، ثمَّ قال:

وكنْتُ وصحبي في ظلام من الدجى نسير على غير الطريق ولا ندري!
وكنا حيارى في القفار ولم يكن دليل لنا نرجو الخلاص من القفر"^(٣).

(١) هكذا ذكر ابن القيم -رحمه الله- عندما ذكر هذه الأبيات لابن أبي الحديد. انظر: "الصواعق

المرسلة"، ٢: ٦٦٨.

(٢) "منهج السلف والمتكلمين في موافقة العقل للنقل"، ٣: ٩٦٧.

(٣) "الصواعق المرسلة"، ٢: ٦٦٨-٦٦٩.

وأبو الوفاء ابن عقيل البغدادي الحنبلي، وكان من أذكى المتكلمة، وتضلع بمذهب المعتزلة، وكان حصله من تلاميذ أبي الحسين البصري، وعاش برهة طويلة على ذلك، يقول في نهاية أمره^(١)، وما وصل إليه من ذلك: "وقد أفضى الكلام بأهله إلى الشكوك، وكثير منهم إلى الإلحاد، تشمُّ روائح الإلحاد من فلتات كلام المتكلمين..."

وقد بالغت في الأصول طول عمري؛ ثمَّ عدت القهقري إلى مذهب الكُتب، وإنما قالوا: إنَّ مذهب العجائز أسلم؛ لأنَّهم لما انتهوا إلى غاية التدقيق في النظر لم يشهدوا ما يشفي العقل من التعليقات والتأويلات؛ فوقفوا مع مراسم الشرع، وجنحوا عن القول بالتعليل، وأذعن العقل بأن فوقه حكمة إلهية: فسلم^(٢).

ويقول -رحمه الله-: "ما على الشريعة أضر من المتكلمين والمتصوفين... فنصيحتي لأخواني من المؤمنين الموحدين: ألا يقرع أبكار قلوبهم كلام المتكلمين، ولا تصغي مسامعهم إلى خرافات المتصوفين... وقد خبرتُ طريقة الفريقين: غاية هؤلاء الشك، وغاية هؤلاء الشطح"^(٣).

قال ابن تيمية -رحمه الله-: "وكثير من حُذَّاق النظر حار في هذه المسائل؛ حتى أذكى الطوائف: كأبي الحسين البصري، وأبي المعالي الجويني، وأبي عبد الله بن الخطيب... فإنَّ الواحد من هؤلاء: تارة يجزم بالقولين المتناقضين في كتابين أو كتاب واحد، وتارة يحار فيها، مع دعواهم أنَّ القول الذي يقولونه قطعي برهاني عقلي لا يحتمل النقيض... وأكثر الفضلاء العارفين بالكلام والفلسفة، بل وبالتصوف، الذين لم يحققوا ما جاء به الرسول: تجدهم فيه حيارى..."

(١) وقد تراجع عن ذلك، وندم على سلوك هذا الطريق المشين، وفي هذا يقول -رحمه الله-: "إنني أبرأ إلى الله تعالى من مذاهب المبتدعة: الاعتزال وغيره، ومن صحبة أربابه، وتعظيم أصحابه، والترحم على أسلافهم، والتكثُر بأخلاقهم، وما كنت علقته ووجد بخطي من مذاهبهم وضلالاتهم فأنا تائب إلى الله سبحانه من كتابته وقراءته، وإنَّه لا يحل لي كتابته، ولا قراءته، ولا اعتقاده". وينظر كلامه بطوله في: "تحريم النظر في كتب الكلام"، لابن قدامه، ص: ٣٣-٣٤.

(٢) انظر: ابن الجوزي، "تلبس إبليس"، ص: ٧٧.

(٣) انظر: "درء التعارض"، ٨: ٦٦.

وهكذا كل من أمعن في معرفة هذه الكلاميات والفلسفيات التي تُعارض بها النصوص، من غير معرفة تامة بالنصوص ولوازمها وكمال المعرفة بما فيها وبالأقوال التي تنافيتها؛ فإنه لا يصل إلى يقين يطمئن إليه، وإنما تفيد الشك والحيرة.

بل هؤلاء الفضلاء الحُذاق الذي يدعون أنَّ النصوص عارضها من معقولاتهم ما يجب تقديمه: تجدهم حيارى في أصول مسائل الإلهيات؛ حتى مسألة وجود الرب تعالى وحقيقته؛ حاروا فيها حيرة أوجبت أن يتناقض هذا: كتناقض الرازي، وأن يتوقف هذا: كتوقف الآمدي، ويذكرون عدّة أقوال يزعمون أنَّ الحق ينحصر فيها؛ وهي كلها باطلة^(١).

وعامة من باشروا علم الكلام مباشرة دقيقة يشهدون على أنفسهم بذلك، ويعترفون بهذه الحيرة والعجز عن تحقيق الفصل في هذه المطالب العالية التي يقطع بها عامة المسلمون، ويجدون فيها الطمأنينة واليقين، ولهذا صنّف أحمد بن إبراهيم الواسطي، وهو المعروف بـ "ابن شيخ الحزامين" نصيحته الموسومة بـ "النصيحة في صفات الرب جل وعلا"، وأخبر في مقدمتها عن حيرته بُرْهة من الدهر في تحقيق هذه المطالب بسبب ثقته بالكلاميات وأهلها، ثمّ عقب بقوله: "مع ذلك: أجد في قلبي من هذه التأويلات (يعني: تأويلات المتكلمين للنصوص الشرعية لتوافق العقل) حزازات لا يطمئن قلبي إليها، وأجد الكدر والظلمة منها، وأجد ضيق الصدر وعدم انشراحه مقروناً بها، فكنت كالمُتَحِيرِ المضطرب في تحيُّره، المتململ من قلبه في تقلبه وتغيّره"^(٢)، وهذا يحكي حال الأكثرين منهم؛ ممّن أحسنوا الظن بالعقليات المتهمة، وقدموها على النصوص البرهانية القاطعة؛ بلسان المقال تارة كما سلف، وبلسان الحال تارات؛ كما تشهد بذلك مصنفاتهم.

حتى "قال بعض المتكلمين: أفنيثُ عمري في الكلام أطلب الدليل؛ وأنا لا أزداد إلا بعداً عن الدليل، فرجعت إلى القرآن أتدبره وأفكر فيه؛ وإذا أنا بالدليل حقاً معي، وأنا لا أشعر به! فقلت: والله ما مثلي إلا كما قال القائل:

(١) "المصدر السابق"، ١: ١٥٨-١٦٤.

(٢) "النصيحة في صفات الرب جل وعلا"، ص: ٩-١٠.

ومن العجائب والعجائب جملة قرب الحبيب وما إليه وصول
كالعيس في البيداء يقتلها الظمًا والماء فوق ظهورها محمول!
قال: فلما رجعت إلى القرآن؛ إذا هو الحكم والدليل، ورأيت فيه من أدلة الله، وحججه،
وبراهينه، وبيناته ما لو جمع كل حق قاله المتكلمون في كتبهم لكانت سورة من سور القرآن
وافية بمضمونه؛ مع حسن البيان، وفصاحة اللفظ، وتطبيق المفصل، وحسن الاحتراز، والتنبيه
على مواقع الشبه، والإرشاد إلى جوابها.

وإذا هو كما قيل؛ بل فوق ما قيل:
كفى وشفى ما في الفؤاد فلم يدع لذي أرب في القول جداً ولا هزلاً
وجعلت جيوش الكلام بعد ذلك تفد إليّ كما كانت، وتتزاحم في صدري، ولا يأذن
لها القلب بالدخول فيه، ولا تلقى منه إقبالاً ولا قبولاً؛ فترجع على أدبارها!"^(١).

وقد ذكر ابن الوزير شغفه بعلم الكلام لطلب الحقائق، والوصول من طريق هذا العلم إلى
أعلى المطالب؛ حتى غرق في بحار الأنظار، وانطرح في مهاوي الأفكار - كما يحكي عن نفسه
بذلك-، ثم قال: "قد وهبت أيام شبابي ولذاقي، وزمان اكتسابي ونشاطي، لكدورة علم
الكلام والجدال، والنظر في مقالات أهل الضلال، حتى عرفت صحة قول من قال (وذكر
أبيات الشهرستاني السابقة، وفيها: فلم أرَ إلا واضعاً كف حائر... على ذقن أو قارعاً سن
نادم)..."

وما زلت أرى كل فرقة من المتكلمين تداوي أقوالاً مريضة، وتقوي أجنحة مهيضة، فلم
أحصل على طائل... فرجعت إلى كتاب الله، وسنة رسول الله ﷺ، وقلت: لا بد أن يكون فيها
براهين، وردود على مخالفتي الإسلام، وتعليم وإرشاد لمن اتبع الرسول ﷺ، فتدبرت ذلك

(١) ابن القيم، "مفتاح دار السعادة"، ١: ١٤٦.

فوجدت الشفاء كله، دقه وجله، وانشرح صدري، وصلاح أمري، وزال ما كنت به مبتلى^(١).

وقريب منه ما ذكر الشوكاني عن نفسه، بعد أن وازن بين مذهب السلف الصالح الموصل لليقين والطمأنينة، ومذهب المتكلمين الموصل للحيرة والاضطراب، ثم قال: "بل اعترف كثير من هؤلاء المتكلمين: بأنه لم يستفد من تكلفه، وعدم قنوعه بما قنع به السلف الصالح؛ إلا مجرد الحيرة التي وجد عليها غيره من المتكلمين..."

وها أنا أخبرك عن نفسي، وأوضح لك ما وقعت فيه في أمسي: فإني في أيام الطلب وعنفوان الشباب شغلت بهذا العلم...ورمت الرجوع بفائدة، والعود بعائدة، فلم أظفر من ذلك بغير الحيرة والحيرة، وكان ذلك من الأسباب التي حببت إلي مذهب السلف، على أني كنت قبل ذلك عليه، ولكن أردت أن أزداد منه بصيرة وبه شغفاً، وقلت عند ذلك في تلك المذاهب:

وغاية ما حصلته من مباحثي ومن نظري من بعد طول التدبر

هو الوقف ما بين الطريقين حيرة فما علم من لم يلق غير التحير^(٢).

فحيرة كبارهم معروفة، وهي ممّا ذاع واشتهر^(٣)، "وما حكوه عن أنفسهم من وقوعهم في الحيرة نتيجة اشتغالهم بعلم الكلام؛ لعبرة لأولي الألباب"^(٤)، حتى قال أحد كبار المتكلمة مرة لبعض الفضلاء وقد دخل عليه: ما تعتقد؟ قال: ما يعتقد المسلمون، فقال: وأنت منشراح الصدر لذلك، مستيقن به؟ فقال: نعم، فقال: "أشكر الله على هذه النعمة؛ لكفي والله ما أدري ما أعتقد، والله ما أدري ما أعتقد، والله ما أدري ما أعتقد، وبكى بكاءً شديداً عظيماً؛

(١) "العواصم والقواصم في الذب عن سنة أبي القاسم"، ١: ٢١٠-٢٠٣ بتصرف، وينظر الموضع

بطوله لمزيد الفائدة فيما ذكر عن نفسه.

وقد ساق ابن الوزير -رحمه الله- في موضع آخر من الكتاب نماذج موسعة من حيرة المتكلمين

وشهاداتهم على أنفسهم. انظر: "العواصم والقواصم"، ٤: ٦٠-٦٧.

(٢) "التحفة في مذاهب السلف"، ص: ٢٥.

(٣) انظر: "درء التعارض"، ١: ١٥٩.

(٤) جابر إدريس، "منهج السلف والمتكلمين"، ٣: ٩٦٩.

حتى أخضل لحيته^(١)، وقال الفاضل منهم: "أمعنت النظر في الكلام، وما استفدت منه شيئاً؛ إلا ما عليه العوام"^(٢)، وقال الآخر عند موته في نهاية مطافه الكلامي: "أموت وما عرفت شيئاً؛ إلا علمي بأنّ الممكن يفتقر إلى المؤثر"، إلى أن قال: "الافتقار وصف سلبي، فأنا أموت وما عرفت شيئاً"^(٣)، وقال أحدهم عن نفسه لتلاميذه يوماً: "أضطجع على فراشي، وأضع الملحفة على وجهي، وأقابل بين أدلة هؤلاء، وأدلة هؤلاء؛ حتى يطلع الفجر، ولم يترجّح عندي شيء!"^(٤)، وهكذا ممّا نُقل واشتهر ودّاع عن المتكلمة ومن سلك طريقهم في ذلك، وهو أشهر من يُحصر، وأبلغ من أن يُذكر، "فهذا اعتراف هؤلاء الفضلاء في آخر سيرهم بما أفادتهم الأدلة العقلية؛ من ضد اليقين، ومن الحيرة والشك، فمن الذي شكّا من القرآن والسنة والأدلة اللفظية هذه الشكاية؟! ومن الذي ذكر أنّها حيرته ولم تهده؟! أوليس بها هدى الله أنبياءه، ورسله، وخير خلقه، قال تعالى لأكمل خلقه، وأوفرهم عقلاً: ﴿قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي وَإِنْ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ رَبِّي﴾ [سورة سبأ: ٥٠]، فهذا أكمل الخلق عقلاً يخبر أنّ اهتدائه بالأدلة اللفظية التي أوحاها الله إليه"^(٥).

(١) انظر: ابن تيمية، "التسعينية"، ٣: ٧٧٥؛ ابن أبي العز، "شرح الطحاوية"، ص: ١٧٨.

(٢) انظر: "درء التعارض"، ٣: ٢٦٢-٢٦٣.

(٣) انظر: "مجموع الفتاوى"، ٩/ ١١٣؛ "المصدر السابق"، ١/ ١٦٢، ٣/ ٢٦٢.

(٤) انظر: "درء التعارض"، ١/ ١٦٥؛ "مجموع الفتاوى"، ٤/ ٢٨؛ "شرح الطحاوية" ص: ١٧٩.

(٥) ابن القيم، "الصواعق المرسلّة"، ٢: ٦٦٩-٦٧٠.

المبحث الخامس: أسباب حصول الحيرة لدى المتكلمين

إنَّ الناظر فيما وصل إليه المتكلمون من الحيرة والتردد والاضطراب، والمتأمل في حكايتهم وما دونوه وشهدوا به على أنفسهم؛ ليجد أنَّ لذلك أسباباً عدَّة أوصلتهم إلى هذه الحيرة في نهاية الحال، ومُجْملة هذه الأسباب تعود إلى ما يأتي:

الأول: الاستغراق في النظر العقلي؛ لما كان علم الكلام قائماً في أصله على النظر العقلي في شأن العقائد الدينيَّة؛ استغرق المتكلمون في الحجج والبراهين العقليَّة في سبيل تثبيت العقائد التي راموا تحصيلها، ودفع ما يعارضها، فكان من نتائج ذلك عليهم: مفارقة الأدلة الصحيحة؛ ومنها الأدلة العقليَّة المضمَّنة في الشرع المنزل -وهي الأدلة الواضحة والسهلة في الوصول إلى اليقين وتحقيق المطلوب-^(١)، فعرَّسوا الأدلة، وعرَّسوا العقائد عليهم، وأضحت غامضة معقدة^(٢)، وأكثروا في سبيل ذلك من الجدل العقلي المذموم، وكثر بينهم التفرُّق والاختلاف والتناقض، بل والتشكيك في الواضحات والمسلمات والبدهيَّات، وجاءوا بما قد يخالف صريح المعقول ومقتضى الفطرة، وتعلقوا بالألفاظ المجمَّلة فراراً من ذلك، ولم يكن لهم قانون مستقيم واضح يسرون عليه^(٣)، فكان ذلك من أعظم أسباب انتهائهم إلى التيه والحيرة والاضطراب ولا سيما في المسائل الكبار، وعدم وصولهم إلى برد اليقين، وتحصيل الثبات والطمأنينة والاستقرار.

وفي وصف هذا يقول أبو مُجَدَّ القحطاني الأندلسي -رحمه الله-:

علم الكلام وعلم شرع مُجَدَّ يتغايران وليس يشتبهان
حملوا الأمور على قياس عقولهم فتبدلوا كتبلد الحيران
لحجاجهم شُبُه تخال ورونق مثل السراب يلوح للظمآن

(١) انظر: ابن تيمية، "بيان تلبيس الجهمية"، ٨: ٥٢٨؛ "درء التعارض"، ١: ١٩٤، ٩: ٣٩؛

"مجموع الفتاوى"، ١٢: ٨١.

(٢) انظر: العز ابن عبد السلام، "قواعد الأحكام"، ١: ٢٠٢.

(٣) انظر: ابن تيمية، "درء التعارض"، ٥: ٣٥٧.

كل يقيس بعقله سبل الهدى ويتيه تيه الواله الهيمان^(١)

ومن نظر في كلام المتكلمين يجد أنهم يصرّحون بذلك، ويعترفون في نهاية الحال بعجز العقول -مهما بذلت وكدّت واجتهدت- عن تحقيق المطلوب، وعجزها عن الفصل في المطالب العالية والمسائل الكبار، ومن أولئك: أبو عبد الله الرازي -وهو من أجلهم قدراً، وأرفعهم رتبةً في الكلام، وأكثرهم عزمًا وإرادةً في تحقيق ذلك، وهو المقدم عند المتأخرين بلا منازعة-^(٢)؛ "فإنّه لم يأت في المتأخرين من حصّل من العلوم العقلية ما حصّله"^(٣)، حيث يقول في آخر كتبه التي صنّفها: "أمّا العلوم العقلية المطلوبة بالذات؛ فهي محصورة في أربعة أنواع... القسم الأول: وهو معرفة الإله، وهو أشرف الأقسام، ولكن من الذي وصل إلى عتبة تلك الحضرة العالية، ومن الذي شم ذلك الجنب المقدس؟! فحاصل العقول: ظنون وحسابات، ومنتهى الأمر: أوهام وخيالات... وإذا ثبت هذا فنقول: هذه الأشياء المسماة "براهين" لو كانت في أنفسها براهين؛ لكان كل من سمعها ووقف عليها وجب أن يقر بها، وألا ينكرها أصلاً... فهذه الأشياء ليست في أنفسها براهين؛ بل هي مقدمات ضعيفة انضافت العصبية والحبة إليها؛ فيجعل بعضهم كونه برهاناً، مع أنّ الأمر في نفسه ليس كذلك"، ثمّ ذكر بعد ذلك بعض المقدمات الإجمالية والتفصيلية المؤكدة لذلك، ثمّ عقب بقوله: "واعلم أنك متى أحطت بهذه المقامات العالية، والمقدمات الرفيعة الشريفة، ووقفت على ما في كل واحد منها من السؤالات المشككة، والاعتراضات الغامضة؛ علمت: أنّ المعرفة اليقينية صعبة، وأنّ الجزم في كل باب بحيث يكون خالياً عن المرية والاضطراب عزيز، وإذا كان الأمر كذلك؛ فالشوق شديد، والحرمان غالب، والآلة ضعيفة، والمطلوب قاهر"، ثمّ ختم بقوله: "أمّا اللذات العقلية: فلا سبيل إلى الوصول إليها، والقرب منها، والتعلق بها، فلهذه الأسباب نقول: ليتنا بقينا على عدم الأول... واعلم أيّ بعد التوغّل في هذه المضائق، والتعمّق في الاستكشاف عن أسرار هذه

(١) "النونية"، ص: ٥١.

(٢) انظر: ابن تيمية، "بيان تلبيس الجهمية"، ١: ٨.

(٣) ابن القيم، "الصواعق المرسلة"، ٢: ٦٦٦.

الحقائق؛ رأيت الأصوب والأصلح في هذا الباب: طريقة القرآن العظيم، والفرقان الكريم وهو ترك التعمق والاستدلال"، يعني: على طرائق المتكلمين في النظر العقلي^(١).

وقال في موضع آخر وهو يُبين نهاية العقول وعجزها عن تحقيق المطلوب: "محصل العقل بعد ارتقاء الفكر الصاعد، واعتلاء الذهن المساعد: إنَّ الأمر إد، والطريق سد، وعزّة الربوبية: لا يمكن الوصول إليها بخطى العقول والأفكار، وكبرياء الإلهية: يمتنع التّرفر عليها بأجنحة الأقيسة والأنظار!"، وقال في هذا: "السراج إنما يُضيء إذا وضع في بيت صغير، وأمّا إذا وضع في صحراء واسعة فإنه يقل ضوءه ويصير كالمظلم، وكذلك سراج العقل إنما يظهر نوره إذا استعمل في المطالب الحقيرة؛ كالحساب، والهندسة، فأما إذا استعمل في المطالب العالية فإنه ينطفئ!!"^(٢)، مع أنه من أكثرهم عناية بالكلام، ومعرفة بالعقليات، ورغبة في تحصيلها، شهد بذلك في نهاية الحال، ولا ينبئك مثل خبير، وكلامهم في هذا يطول؛ بلسان المقال والحال.

وقد أحسن المعلمي -رحمه الله- بقوله: "فالنظر العقلي المتعمق فيه؛ مع أنه لا حاجة إليه في معرفة الحق؛ فهو مظنة أن يُشكّك في الحقائق، ويوقع في اللبس، والاشتباه، والضلال، والحيرة، وتجذ في كلام الغزالي وغيره ما يُصرّح: بأنَّ النظر العقلي المتعمق فيه لا يكاد ينتهي إلى يقين؛ وإنما هي شبهات تتقارع، وقياسات تتنازع؛ فأما: أن ينتهي الناظر إلى الحيرة، وإمّا: أن يعجز فيرضى بما وقف عنده؛ ولا سيما إذا كان موافقاً لهواه، وإمّا: أن لا يزال يتطوَّح بين تلك المتناقضات؛ حتى يفاجئه الموت"^(٣).

(١) "ذم لذات الدنيا" ص: ٢٥٢-٢٦١، وقد صَنَّف هذه الرسالة كما دَوَّن في آخرها سنة:

(٤٠٦هـ)، وهي من آخر رسائله، دَوَّنها قبل وفاته بستين. انظر: الزركان، "فخر الدين الرازي

وآراؤه الكلامية والفلسفية"، ص: ٧٨.

(٢) "المطالب العالية"، ٧: ١٦٦-١٦٧، وهو آخر كتبه التي صَنَّفها وتوفي قبل أن يتم الكتاب.

انظر: "فخر الدين الرازي وآراؤه الكلامية والفلسفية"، ص: ٩٤.

(٣) "القائد إلى تصحيح العقائد"، ص: ٦٢.

الثاني: تكافؤ الأدلة العقلية؛ وهذا أحد أسباب انتهاء المتكلمين إلى الحيرة^(١)، والقول بتكافؤ الأدلة سمة عامة لهؤلاء؛ خاصة في المسائل الكبار^(٢)، حتى قال ابن واصل الحموي - وهو من أفضل أهل زمانه في الكلام والعقليات^(٣) -: "أضطجع على فراشي، وأضع الملحفة على وجهي، وأقابل بين أدلة هؤلاء وأدلة هؤلاء؛ حتى يطلع الفجر، ولم يترجّح عندي شيء"^(٤)، وقال غيره من المتكلمين وهو يحكي هذه اللوعة: "بثُّ البارحة أفكر إلى الصباح في دليل على التوحيد سالم عن المعارض فما وجدته"^(٥)، "ولهذا ذهب طائفة من أهل الكلام: إلى القول بتكافؤ الأدلة، ومعناه: أنّها قد تكافأت وتعارضت؛ فلم يعرف الحق من الباطل"^(٦)، "واعتبر ذلك بالرازي؛ فإنّه في هذه -وهي مسألة حدوث الأجسام- يذكر أدلة الطائفتين، ويصرّح في آخر كتبه وآخر عمره -وهو كتاب المطالب العالية- بتكافؤ الأدلة، وأنّ المسألة من محارات العقول، ولهذا كان الغالب على أتباعهم الشك والارتياب"^(٧)، "وفي كتبه التي خلط فيها بين الطريقتين يضرب أقوال هؤلاء بهؤلاء، وهؤلاء بهؤلاء؛ ويجلس بينهما حائراً؛ لا إلى هؤلاء، ولا إلى هؤلاء"^(٨)، "وقد قيل: إنّ الأشعري -مع أنّه من أقربهم إلى السنة والحديث، وأعلمهم بذلك- صنّف في آخر عمره كتاباً في (تكافؤ الأدلة) يعني: أدلة علم الكلام؛ فإنّ ذلك هو صناعته التي يحسن الكلام فيها، وما زال أئمتهم يخبرون بعدم الأدلة والهدي في

(١) انظر: ابن تيمية، الفتاوى الكبرى، ٦: ٦٤٩؛ "بيان تلبيس الجهمية"، ٤: ٤١٦؛ "الصفدية"،

١: ٢٩٤.

(٢) انظر: "التسعينية"، ص: ٢٠١.

(٣) انظر: "مجموع الفتاوى"، ٤: ٢٨، ابن القيم، "الصواعق المرسلّة"، ٣: ٨٤٢.

(٤) انظر: "درء التعارض"، ١: ١٦٥؛ "مجموع الفتاوى"، ٤: ٢٨؛ ابن أبي العز، "شرح الطحاوية"،

ص: ١٧٩.

(٥) انظر: "درء التعارض"، ٣: ٢٦٣.

(٦) "الصواعق المرسلّة"، ٣: ٨٤٢.

(٧) "الفتاوى الكبرى"، ٦: ٥٥٧.

(٨) "الصواعق المرسلّة"، ٢: ٦٦٧.

طريقهم، كما ذكرناه عن أبي حامد وغيره^(١)، وقد ذكر ابن عساكر حيرة الأشعري؛ وذلك بعد تكافؤ الأدلة والحجج العقلية عنده، ثم قال: "غاب (يعني: أبا الحسن الأشعري) عن الناس في بيته خمسة عشر يوماً، فبعد ذلك خرج إلى الجامع، فصعد المنبر، وقال: معاشر الناس إني إنما تغيت عنكم في هذه المدة لأني نظرت فتكافأت عندي الأدلة، ولم يترجح عندي حق على باطل، ولا باطل على حق"^(٢)، وكان ذلك من أسباب هجره لطريقة المعتزلة.

وفي بيان هذا يقول ابن تيمية -رحمه الله-: "ثم هؤلاء مضطربون في معقولاتهم...تجد هؤلاء يقولون: إننا نعلم بالضرورة أمراً، والآخر يقولون نعلم بالنظر أو بالضرورة ما يناقضه، وهؤلاء يقولون: العقل الصريح لا يدل إلا على ما قلناه، والآخر يناقضهم في ذلك، ثم من جمع منهم بين هذه الحجج أداه الأمر إلى: تكافؤ الأدلة؛ فيبقى في الحيرة والوقف، أو إلى التناقض؛ وهو أن يقول هنا قولاً، ويقول هنا قولاً يناقضه؛ كما تجد من حال كثير من هؤلاء المتكلمين والمتفلسفة؛ بل تجد أحدهم يجمع بين النقيضين، أو بين رفع النقيضين، والنقيضان اللذان هما الإثبات والنفي لا يجتمعان ولا يرتفعان؛ بل هذا يُفيد صاحبه الشك والوقف...وهذا هو حال حُذَّاق هؤلاء؛ كأبي المعالي، وأبي حامد، والشهرستاني، والرازي، والآمدي"^(٣).

وقال -رحمه الله-: "بل هؤلاء الفضلاء الحُذَّاق الذين يدعون أنَّ النصوص عارضها من معقولاتهم ما يجب تقديمه؛ تجدهم حيارى في أصول مسائل الإلهيات -حتى مسألة وجود الرب تعالى وحقيقته-؛ حاروا فيها حيرة: أوجبت أن يتناقض هذا؛ كتناقض الرازي، وأن يتوقف هذا؛ كتوقف الآمدي...وقد حكى عن طائفة من رؤوس أهل الكلام أنهم كانوا يقولون: بتكافؤ الأدلة، وأنَّ الأدلة قد تكافأت من الجانبين، حتى لا يعرف الحق من الباطل، ومعلوم أنَّ هذا إنما قالوه فيما سلكوه هم من الأدلة"^(٤).

(١) "مجموع الفتاوى"، ٤ : ٢٨.

(٢) ابن عساكر، "تبيين كذب المفتري"، ص: ٣٨-٣٩؛ وانظر: ابن خلكان، "وفيات الأعيان"، ٣ : ٢٨٥.

(٣) "الصفدية"، ١ : ٢٩٤.

(٤) "درء التعارض"، ١ : ١٦٤.

الثالث: التشويش؛ بإيراد الاعتراضات على المسائل والنصوص؛ حتى انتهت بهم إلى الحيرة، "والحيرة تعظم على توالي الأيام، فقد آل علم الكلام إلى منهج يُعنى بإيراد الاعتراضات على المسائل والنصوص، والعمل على الجواب عنها، فتجد المتكلم لا يكف عن إيراد الاعتراض تلو الاعتراض على المسائل؛ بما يربك العقل، ويدخله في حيرة لا يهتدي بها إلى جواب، وميزانه في هذا: العقل لا النقل، والعقل قد حار، فما عساه أن يصنع ليخرج من هذه الورطة؟! "

فكثرة الأسئلة والإيرادات تُورد المهالك... فهذا سبب حيرة وتوبة كبارهم، ووصية الغزالي بالإعراض عن الكلام كان لهذا... فالتشويش وهو نوع من الشك؛ أتى من قبل الكلام؛ بإيراد الاعتراضات والجدل... وعليه (يعني: العقل) بنوا توليد تلك المعارضات، والإجابة عنها؛ لكن لم يفتنوا إلى أنها تتوالد - مع انضمام المغالطات لها - على الدوام فلا تنتهي؛ حتى تصل إلى مضائق الفكر، فيتلاشى العقل حينها، فلا يهتدي إلى الطريق" ^(١).

وفي هذا يقول أبو المظفر السمعاني - رحمه الله - حينما ذكر العامة وثباتهم على العقائد وسلامة قلوبهم لسلامة التلقي والتسليم بخلاف المتكلمة: "فهنيئاً لهم السلامة، والبعد عن الشبهات الداخلة على أهل الكلام، والورطات التي تورطوا فيها؛ حتى أدت بهم إلى المهاوي والمهالك، ودخلت عليها الشبهات العظيمة، وصاروا في الآخرة متحيرين عمهين" ^(٢).

الرابع: إهمال الأدلة الشرعية؛ لما اعتبر المتكلمون العقل هو الأصل والأساس قدّموه على النقل في الاستدلال، ووضعوا لذلك ما يُسمونه بـ "القانون الكلي"، وحاصله تقديم العقل على النقل في القطعيّات؛ لأنّ النصوص الشرعية ظنيّة الدلالة، لا تفيد القطع واليقين كما يدعون، فلا يسوغ الأخذ بها في اليقينيّات، فلم يعتنوا بالأدلة الشرعية، ولم يهتموا بها، ولم يرفعوا بها رأساً؛ حتى خلت منها مصنفاتهم، وعظم جهلهم بها ^(٣)، فكان ذلك من أعظم أسباب فقدان اليقين والطمأنينة في العقائد، والوقوع في التّيه والحيرة؛ ألا هو "إعراضهم عن استمداد

(١) لطف الله خوجه، "علة ذم السلف لعلم الكلام"، ص: ٥٨٦.

(٢) "قواطع الأدلة في الأصول"، ٢: ٣٤٧؛ وانظر: ابن تيمية، "بيان تلبس الجهمية"، ٨-١٢.

(٣) انظر: "جواب الاعتراضات المصرية"، ص: ٣٨؛ "مجموع الفتاوى"، ٤: ٧١، ٩٦؛ "درء

التعارض"، ٧: ٢٩-٣٢.

أصول دينهم من الوحي، الذي هو النور المجلي لظلمات الحيرة والتَّيَّه، فلما عديم المتكلمون ذلك النور تحبَّطوا حائرِينَ شاكين^(١).

وقد أحسن الطحاوي -رحمه الله- بقوله: "ولا تثبت قدم الإسلام إلا على ظهر التسليم والاستسلام، فمن رام علم ما حظر عنه علمه، ولم يقنع بالتسليم فهمه، حجبته مرامه عن خالص التوحيد، وصافي المعرفة، وصحيح الإيمان، فيتذبذب بين الكفر والإيمان، والتصديق والتكذيب، والإقرار والإنكار، موسوساً تائهاً شاكاً"^(٢).

قال ابن أبي العز الحنفي -رحمه الله- معلقاً على كلامه: "وهذه الحالة التي وصفها الشيخ -رحمه الله- حال كل من عدل عن الكتاب والسنة إلى علم الكلام المذموم، أو أراد أن يجمع بينه وبين الكتاب والسنة؛ وعند التعارض: يتأول النص، ويرده إلى الرأي والآراء المختلفة، فيؤول أمره إلى الحيرة والضلال والشك"^(٣)، ثم ساق جملة من الشواهد على حيرة المتكلمين وشكهم لبعدهم وإعراضهم عن الوحي المنزل والشرع المطهر، ثم عَقَّب بقوله: "ومن يصل إلى مثل هذه الحال إن لم يتداركه الله برحمته وإلا تزندق، كما قال أبو يوسف: من طلب الدين بالكلام تزندق"^(٤).

الخامس: البعد عن طريقة السلف الصالح، وهي أحسن الطرق وأعدلها وأقومها، وفيها العلم والحكمة والسلامة وبرد اليقين، فمن ابتعد عن طريقته، أو كان جاهلاً بها كما هو شأن عامة المتكلمين^(٥)؛ فإنَّ ذلك من أسباب البقاء في التَّيَّه والحيرة والعمه، ف "جهل المتكلمين بمذهب أهل الحق في أصول الدين، وهو مذهب السلف الصالح، قد أدى بهم إلى حصرهم

(١) الصمادي، "موافقة مناهج المتكلمين وعقائدهم لما ذمه الله تعالى"، ٢: ٨١٥.

(٢) "العقيدة الطحاوية"، ص: ٤٣.

(٣) "شرح الطحاوية"، ص: ١٧٧.

(٤) "المصدر السابق"، ص: ١٧٧-١٧٩.

(٥) انظر: "مجموع الفتاوى"، ٤: ٧١، ١٥٦، ١٣: ٢٥، ١٧: ٢٤٧؛ "منهاج السنة النبوية"، ٦:

٣٢٠؛ "درء التعارض"، ٧: ٣٢، ١٦٦؛ الهراس، "شرح النونية"، ١: ٢٠٩.

البحث عن الحق في مذاهب من سواهم من أهل الكلام والفلسفة وغيرهم^(١)، وحيث إنهم لن يجدوا الحق الذي ينشدونه في هذه المذاهب؛ فإنهم بقوا في ظلمة الحيرة^(٢).

ف "وقع لهم الخطأ من جهتين:

إحدهما: أنهم لم يعرفوا الحق في نفسه على ما هو عليه؛ لا بدليل عقلي ولا سمعي.

الثانية: أنهم لم يعرفوا حقيقة أقوال السلف، وما كان عندهم من العلم والبيان، فكان عندهم قصور في معرفة الحق في نفسه، وفي معرفة الأنبياء والسلف به، وظنوا أن ما وصلوا إليه هو الغاية الممكنة^(٣).

فهذه جملة أسباب انتهاء المتكلمين إلى الحيرة؛ لاستغراقهم في العقليّات، والتكلف في الجدل وإيراد الاعتراضات، وإهمال النظر الشرعي، وعدم لزوم طريقة السلف الصالح؛ وهي أعظم أسباب الصلاح والنجاة، والتوفيق والفلاح.

(١) انظر في ذلك -مثلاً- ما سطره الغزالي عن نفسه في رحلة البحث عن الحقيقة للوصول إلى اليقين، فحصر الحق في أربعة أصناف وهم: المتكلمون، والباطنية، والفلاسفة، والصوفية، ثم قال: "فقلت في نفسي: الحق لا يعدو هذه الأصناف الأربعة، فهؤلاء هم السالكون سبيل طلب الحق، فإن شدد الحق عنهم، فلا يبقى في درك الحق مطمع"، ولم يذكر طريقة السلف الصالح، وهي الطريقة النبوية الشرعية الموصلة للحق واليقين. انظر: "المنقذ من الضلال"، ص: ١١٧ وما بعدها.

(٢) "موافقة مناهج المتكلمين وعقائدهم لما ذمه الله تعالى"، ٢: ٨١٥.

(٣) "درء التعارض"، ٨: ٥٨.

المبحث السادس: مآلات الحيرة على المتكلمين

تقدّم البحث آنفاً في حيرة أعيان المتكلمين، وأسباب انتهائهم إلى الحيرة والاضطراب، وقد كان لهذه الحيرة مآلاتها المؤثرة على أهلها، ومآلات الحيرة يُراد بها: النتائج والآثار والأمور الحاصلة منها، وإجمالها في الأمور الآتية:

أولاً: التثقل والتحوّل؛ "فإنَّ الحيرة والاضطراب الذي يُصيب النفس هما من أسباب انحراف النفس عن كمالها الذي تعيش لتتحصل عليه؛ بل الحيرة والاضطراب مرض ونقص متى وجد في إنسان أصبح منحرفاً؛ إمّا في فكره، أو في سلوكه، وإمّا في معتقده؛ يقدم مرةً ويُحجم أخرى، والأمر في المرتين واحد، يقول القول ثمَّ يعتقد نقيضه وهكذا"^(١)، ومن يتعامل مع كتب المتكلمين يجد هذا ظاهراً بيناً لا يحتاج إلى بسط أو شرح وبيان^(٢)، وهو من مآلات الحيرة التي من أسبابها الجدل والخصومات، والتشويش وكثرة الاعتراضات، وقد صدق عمر بن عبدالعزيز -رحمه الله- حينما قال: "من جعل دينه غرضاً للخصومات: أكثر التثقل"^(٣)، وكلام أئمة السلف في تأكيد هذا المعنى كثير.

ومن ذلك مثلاً ما وقع لأبي الحسن الأشعري؛ فإنَّه حكى عن نفسه التحوّل والانتقال عن طريقة المعتزلة، وذلك بعد الحيرة التي أصابته؛ بسبب الخصومات الاعتراضات كما سبق^(٤)، وأبو حامد الغزالي حكى قريباً من ذلك عن نفسه^(٥)، ويتحول بعضهم في آخر أمره إلى دين العجائز، فيقر بما أقروا به، وهو منتهى ما يحصلونه بعد الكد والجهد، فقد "ذكر الثقة عن الآمدي أنَّه قال: أمعنت النظر في الكلام، وما استفدت منه شيئاً إلا ما عليه العوام، أو كلاماً

(١) "أثر علم الكلام على المنتسبين إليه"، ص: ٣٨٢.

(٢) انظر: ابن تيمية، "مجموع الفتاوى"، ٤: ٥٠ وما بعدها، وممّا قال -رحمه الله-: "أنك تجد أهل الكلام أكثر الناس انتقالاً من قول إلى قول، وجزماً بالقول في موضع، وجزماً بنقيضه وتكفير قائله في موضع آخر، وهذا دليل عدم اليقين"، ومن يتعامل مع مصنفات المتكلمين يجد هذا ظاهراً.

(٣) انظر: عبد الله بن أحمد، "السنة"، ١: ١٣٣؛ التيمي، "الحجة في بيان المحجة"، ٢: ٤٨٨.

(٤) انظر في ذلك: ابن عساكر، "تبيين كذب المفتري"، ص: ٣٨-٣٩؛ ابن خلكان، "وفيات الأعيان"، ٣: ٢٨٥.

(٥) انظر: "المنقذ من الضلال"، ص: ١١٧-١١٨.

هذا معناه^(١)، وقال غيره بعد الإمعان في الكلام والوصول إلى هذه الحقيقة: "عليكم بدين العجائز؛ فإنه أسنى الجوائز"^(٢)، وقال الآخر قبل موته: "اشهدوا علي أنني رجعت عن كل مقالة يُخالف فيها السلف، وأني أموت على ما يموت عليه عجائز نيسابور"^(٣)، وهذا هو "معنى قول بعض الأئمة: (عليكم بدين العجائز) يعني: أئمة مؤمنات بالله على فطرة الإسلام، لم يدرين ما علم الكلام"^(٤).

قال ابن أبي العز الحنفي -رحمه الله- بعد نقله عن عدد من أعيان المتكلمين الذين تحيروا واضطربوا في نهاياتهم: "وتجد أحد هؤلاء عند الموت: يرجع إلى مذهب العجائز، فيقر بما أقروا به، ويعرض عن تلك الدقائق المخالفة لذلك؛ التي كان يقطع بها، ثم تبين له فسادها، أو لم يتبين له صحتها، فيكونون في نهاياتهم -إذا سلموا من العذاب- بمنزلة أتباع أهل العلم؛ من الصبيان، والنساء، والأعراب"^(٥).

ولهذا أنشد بعض فضلائهم وأذكيائهم:

تجاوزت حد الأكثرين إلى العلا وسافرت واستبقيتهم في المفاوز
وخضت بحاراً ليس يدرك قعرها وسيرت نفسي في قسيم المفاوز
ولججت في الأفكار ثم تراجع اختياري إلى استحسان دين العجائز^(٦).

قال أبو العباس القرطبي -رحمه الله-: "وقد رجع كثير من أئمة المتكلمين عن الكلام بعد انقضاء أعمار مديدة، وآماد بعيدة؛ لما لطف الله بهم، وأظهر لهم آياته"^(٧).

(١) "درء التعارض"، ٣: ٢٦٢.

(٢) الشهرستاني، "نهاية الإقدام"، ص: ٤؛ وانظر: ابن الوزير، "الروض الباسم"، ٢: ٣٤٩.

(٣) انظر: ابن تيمية، "الفتاوى الكبرى"، ٦: ٦١٧؛ الذهبي، "تاريخ الإسلام"، ١٠: ٤٢٤؛ السبكي، "طبقات الشافعية الكبرى"، ٥: ١٩١.

(٤) الذهبي، "العلو للعلي الغفار"، ص: ٢٥٨.

(٥) "شرح الطحاوية"، ص: ١٧٩.

(٦) انظر: "العلو للعلي الغفار"، ص: ٢٥٨؛ الصفدي، "الوافي بالوفيات"، ٤: ١٤٧؛ "العواصم

والقواصم"، ٤: ٦١.

(٧) "المفهم"، ٦: ٦٩٢.

والرجوع عن الكلام -جُملة أو تفصيلاً- وإعلان الندم والحسرة على ما مضى من العمر في هذه العلوم المعقّدة والعويصة والموقعة في الإشكالات العميقة^(١) محمود من صاحبه -ولا ريب-، "وهي خطوة جريئة؛ يقوم بها قلة من كبار المتكلمين الذين دعّتهم أنفسهم إلى تجاوز مرحلة التوقف، وإنهاء هذه المأساة والمعاناة التي تعيشها النفس"^(٢).

قال الشوكاني -رحمه الله- في عقد نفيس: "زعموا (يعني: أهل الكلام) أنّ طريق الخلف أعلم، فكان غاية ما ظفروا به من هذه الأعلميّة لطريق الخلف: أن تمنى محققوهم وأذكيائهم في آخر أمرهم دين العجائز، وقالوا: هنيئاً للعامة، فتدبر هذه الأعلميّة التي حاصلها أن يهنئ من ظفر بها الجاهل الجهل البسيط، ويتمنى أنه في عدادهم، وممن يدين بدينهم، ويمشي على طريقهم، فإنّ هذا ينادي بأعلى صوت ويدل بأوضح دلالة على أن هذه الأعلميّة التي طلبوها: الجهل خير منها بكثير، فما ظنك بعلم يقر صاحبه على نفسه: أنّ الجهل خير منه!!

وينتهي عند البلوغ إلى غايته والوصول إلى نهايته: أن يكون جاهلاً به، عاطلاً عنه، ففي هذا عبرة للمعتبرين، وآية بيّنة للناظرين"^(٣).

فلا شك أنّ النظر والتأمّل في هذه المعاناة والرزيّة التي عاشها أولئك في سبيل تحصيل هذه العلوم تزيد المتبع للسنّة النبويّة والطريقة السلفية المحمدية تمسكاً وتعظيماً وثباتاً؛ فـ "من عرف حقائق ما انتهى إليه هؤلاء الفضلاء الأذكياء: ازداد بصيرةً، وعلماً، و يقيناً بما جاء به الرسول ﷺ"^(٤).

(١) كما يُشير الفخر الرازي ويُصرّح بهذا في عدد من كتبه، ومنها كتابه "أقسام اللذات؛ لما ذكر أنّ هذا العلم أشرف العلوم، وأنّه ثلاث مقامات: العلم بالذات، والصفات، والأفعال، وعلى كل مقام عقدة، فعلم الذات عليه عقدة: هل الوجود هو الماهية أو زائد في الماهية؟ وعلم الصفات عليه عقدة: هل الصفات زائدة على الذات أم لا؟ وعلم الأفعال عليه عقدة: هل الفعل مقارن للذات، أو متأخر عنها؟ ثمّ قال: ومن الذي وصل إلى هذا الباب، أو ذاق من هذا الشراب؟!". "درء التعارض"، ١: ١٥٩-١٦٠.

(٢) "أثر علم الكلام على المنتسبين إليه"، ص: ٣٨٧.

(٣) "التحف في مذاهب السلف"، ص: ٢٨.

(٤) "درء التعارض"، ٢: ٢٠٦.

ثانياً: ذم الكلام، والتحذير من الاشتغال به من كبار أهله ورواده، وهذا ممّا ذاع واشتهر من قِبل كبار المتكلمين؛ بل "لم أرَ بحسب اطلاعي القاصر علماً بلغ كثير من أساطينه الغاية فيه، ثمّ ذمّوه ونقدوه كعلم الكلام، فإنّ ذلك خلاف المستقر في الصنائع والعلوم"^(١). حتى قال أبو المعالي الجويني -وهو أساس في الكلام- في وصيّته الشهيرة وهو يُوصي بها أصحابه من بعده: "يا أصحابنا لا تشتغلوا بالكلام، فلو عرفت أنّ الكلام يبلغ بي إلى ما بلغ ما اشتغلت به"^(٢)، وقبله الأشعري حينما ذم طريقة المعتزلة التي كان ينتحلها ويعظمها، ثمّ تراجع عن الكلام كله وتبرأ منه إلى طريقة السلف، وبعده الغزالي وقد أجهز على علم الكلام بالذم والتقريع في تضاعيف كلامه^(٣)، وغيرهم كثير، وقد سبقت إشارات إلى ذلك، مع ذم بعضهم بعضاً، وهم ينتحلون ذات الطريقة، وعين الأدلة العقلية، وذلك من نتاج الاضطراب والتحير.

بل تمنى بعضهم إحراق ما دون من مصنفات في علم الكلام بعد هجره وذمه، ومن أولئك أبو العباس محمد بن أبي بكر المرعشي -وهو ممّن تبحر في الكلام وصنّف فيه المصنفات-؛ حيث يقول: "وأقول: كما هجر الغزالي الكلام كذلك هجرته، وتبرأت وتبت منه إلى الله تعالى -الذي يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات- وأسأل الله ألا يحشرني يوم القيامة مع المتكلمين، وهذا القول مني بعد اشتغال بالكلام، وتألّفي فيه نشر الطوابع (يعني: طوابع البيضاوي)، والآن: أتمنى أن أجمع نسخه المنتشرة، وأحرقها بالنار، ولئلا يبقى مني أثر في الكلام"^(٤).

(١) النعمي، "القوادح السلفية في مشروعية علم الكلام"، ص: ٥٦٥.

(٢) انظر: الذهبي، "تاريخ الإسلام"، ١٠: ٤٢٤؛ ابن الوزير، "الروض الباسم"، ٢: ٣٤٨؛ السفاريني، "لوامع الأنوار البهية"، ١: ١٠٩.

(٣) انظر مثلاً: "قواعد العقائد" ص: ٧٧؛ "إلجام العوام عن علم الكلام" ص: ٨١؛ "المقصد

الأسنى"، ص: ١٠٨؛ "ميزان العمل"، ص: ٤٠٧.

(٤) "ترتيب العلوم" ص: ٢١٤.

حتى ذكر عن بعض المتكلمين أنه يُعقب القراءة والنظر في كتب وشروح الكلام بكتب السيرة النبوية؛ "إصلاحاً لما أفسده الشرح المذكور، وتلافياً لما أورثه تدريسه من زعزعة العقيدة، ومن الوهن في التصميم!"^(١).

وربما أعرض بعضهم عن علم الشريعة -ولا سيما ما يتصل منها بالإلهيات- إلى غيره من العلوم الأخرى، بسبب ما وجده من علم الكلام، فقد ذكر ابن تيمية -رحمه الله- حيرة ابن واصل مُحمد بن سالم الحموي، ونقل كلامه في ذلك، وكان من أفضل أهل زمانه في الكلام، ثم قال: "ولهذا انتهى أمره إلى كثرة النظر في الهيئة؛ لكونه تبين له فيه من العلم ما لم يتبين له في العلوم الإلهية!"^(٢).

ثالثاً: البقاء في الحيرة، واعتبارها الغاية، وهذا وقع من بعضهم بعد الوصول إلى الحيرة، وذهاب الرسوخ والطمأنينة واليقين، "فيقون في الحيرة؛ ولهذا يجعلون الحيرة: منتهى المعرفة، ويُرَوون عن النبي ﷺ حديثاً مكذوباً عليه: (أعلمكم بالله: أشدكم حيرة)، وأنه قال: (اللهم زدني فيك تحيراً)"^(٣)، وهي من وضع الجهال؛ باتفاق أهل العلم والعناية بالحديث^(٤)، "فلم يرو هذا الحديث أحد من أهل العلم بالحديث، ولا هو في شيء من كتب الحديث، ولا في شيء من كتب من يعلم الحديث؛ بل ولا من يعرف الله ورسوله"^(٥)، "والله قد ذم الحيرة في القرآن، وفي الجملة: فالحيرة من جنس الجهل والضلال، ومُحمد ﷺ أكمل الخلق علماً بالله وبأمره، وأكمل الخلق اهتداءً في نفسه، وهدياً لغيره، وأبعد الخلق عن الجهل والضلال"^(٦)، وهكذا كل

(١) مُحمد بن صالح الغرسي، "تحقيق مسائل مهمات"، ص: ٢١، وهو قائل هذا وناقله من أهل

الكلام؛ وانظر للمزيد: محمود الحساني، "شرح المنظومة الجزائرية في العقائد للمنشليبي"، ص: ١٣٣.

(٢) "درء التعارض"، ١: ١٦٥.

(٣) ابن تيمية، "مجموع الفتاوى"، ٢: ٢٦؛ وانظر كذلك: "الفتاوى الكبرى"، ٥: ٥٧،

(٤) "مجموعة الرسائل والمسائل"، ١: ٢٠٥؛ "مجموع الفتاوى"، ١١: ٣٨٣.

(٥) "مجموع الفتاوى"، ٢: ٢٠٢، ٥: ١٧٩.

(٦) "المصدر السابق"، ١١: ٣٨٤.

من سار على طريقته ونهجه، وسلك هديه، واتبع سنته المطهرة من كل عيب؛ فإنه يصل إلى العلم والرسوخ والطمأنينة واليقين.

رابعاً: إهمال العمل، أو التقصير فيه، وهذا من آثار الحيرة السيئة على أهلها، وقد ذكر هذا عن بعضهم، ولا سيما غلاتهم، فلما ذكر الإمام أحمد -رحمه الله- حيرة الجهم بن صفوان بعد مناظرته للسُّمنية، قال: "فتحير الجهم؛ فلم يدر من يعبد أربعين يوماً"^(١)، "وقال ضمرة: عن ابن شَوَّذَب: ترك الجهم الصلاة أربعين يوماً على وجه الشك، فخاصمه بعض السُّمنية، فشك فأقام أربعين يوماً لا يصلي، قال ضمرة: وقد رآه ابن شوذب"^(٢).

ولهذا قال الأوزاعي -رحمه الله-: "إذا أراد الله بقوم شراً: فتح عليهم الجدل، ومنعهم العمل"^(٣).

وقد نقل أبو العباس المرعشي عن أحد أعيان المتكلمة، ومَن لهم باع في الكلام أنه يقول: "الاشتغال بتفاصيل علم الكلام يُقسي القلب، ولذا نرى أكثر طلبته تاركي الصلاة، ومرتكبي الكبائر، ومضيعي العمر فيما لا يعينهم"، ثم علق المرعشي -رحمه الله- بقوله: "أمَّا قسوة القلب فقد وجدناها -بلا شك- عند الاشتغال به"^(٤).

وهذا من أعظم بواعث ذم السلف الصالح للكلام؛ إثارته للشك والحيرة والاضطراب، وهذه السوالب النفسية قد تتماهى وتعظم؛ فتفضي بصاحبها إلى الزندقة والانسلاخ من الدين بالكليّة، لا سيما إن صاحب ذلك ضعف التدين، وغلبة الهوى"^(٥)، وأمّا "السلف فطريقتهم

(١) "الرد على الجهمية والزنادقة"، ص: ٩٤.

(٢) البخاري، "خلق أفعال العباد"، ص: ٣٠.

(٣) انظر: أبو إسماعيل الهروي، "ذم الكلام وأهله"، ٥: ١٢٣.

(٤) "ترتيب العلوم"، ص: ٢١٥.

(٥) "القوادح السلفية في مشروعية علم الكلام"، ص: ٥٨٤؛ وانظر في ذلك: المعلمي، "رفع

الاشتباه" ضمن مجموع آثار العلامة عبد الرحمن المعلمي، ١: ٨٢.

تعلم العلم للعمل، فما كان من أثره عمل تعلموه، وطلبوه، وسألوا عنه، وما لم يؤثر عملاً تركوه، وأعرضوا عنه، فهذا فرق ما بين الطريقتين"^(١).

خامساً: الانغماس في الشهوات والملذات، وذلك بعد فقد الطمأنينة والعلم واليقين،
وقد أشار إلى هذا المآل الخطير ابن تيمية بعد ذكره لحيرة المتكلمين بقوله: "ولهذا تجد كثيراً من هؤلاء لما لم يتبين له الهدى في طريقه: نكص على عقبيه، فاشتغل باتباع شهوات الغي في بطنه وفرجه، أو رياسته وماله ونحو ذلك، لعدم العلم واليقين الذي يطمئن إليه قلبه، وينشرح له صدره...وهؤلاء المعرضون عن الطريقة النبوية السلفية يجتمع فيهم هذا وهذا:

- اتباع شهوات الغي.

- ومضلات الفتن.

فيكون فيهم من الضلال والغى بقدر ما خرجوا عن الطريق الذي بعث الله به رسوله"^(٢).

(١) "علة ذم السلف لعلم الكلام"، ص: ٥٩٥.

(٢) "درء التعارض"، ١: ١٦٥-١٦٦.

الخاتمة

في خاتمة هذا البحث أحمد الله تعالى وهو أهل الحمد والثناء على ما منَّ به من إتمامه، وأسجل بين يدي القارئ الكريم أبرز ما توصلت إليه من النتائج التفصيلية:

١. حقيقة علم الكلام: ما أحدثه المتكلمون في أصول الدين من إثبات العقائد بالطرق العقلية التي ابتكروها، والمناهج المعقدة التي اخترعوها، وظنوا فيها الرسوخ ومنتهى الوصول والتحقيق والغاية، وأعرضوا بها عمّا جاء في الكتاب والسنة، وعن طريقة السلف الصالح.

٢. سُمي الكلام بهذا الاسم على سبيل الذم؛ لا على سبيل الثناء والمدح والإعجاب، كما وظفه أهل الكلام فيما بعد، فسُمي هذا العلم بالكلام وأهله بالمتكلمين؛ لأنهم تكلموا فيما سكت عنه الشرع، وخاضوا في كلام لم يتكلم فيه السلف الأوائل.

٣. في تسمية علم الكلام بهذا الاسم ذكرت أوجه عدّة؛ ومنها: أنّه مشتق من (الكلم) أي: الجرح، لشدة تأثيره على القلب، فالكلام يجرح القلب، وجرحه للقلب سلباً وليس إيجاباً، وهذا ما يشهد له حالهم في العاقبة والمآل، كما شهدوا بذلك على أنفسهم.

٤. الناظر في علة الذم السلفي للكلام يجد أسباب ذلك ظاهرة؛ عند أدنى تعاطي لكتب الكلام، والنظر في حال أهله وما وصلوا وانتهوا إليه، فإنّ الكلام من أعظم أسباب تتبّع المتشابهات، وتوليد المعارضات، التي تفضي بأهلها إلى الشك والحيرة.

٥. معنى الحيرة يعود إلى: التردد والاضطراب، وحالة الشك والارتياب، وحصول الارتباك والالتباس، وعدم الاهتداء إلى الطريق القويم.

٦. من تعود معارضة الشرع بالرأي والعقل لا يستقر في قلبه الإيمان، ولا يصل إلى الرسوخ والثبات واليقين.

٧. العاقبة التي يؤول إليها أصحاب الكلام لا تكون خيراً بحال؛ بل هي من أعظم ما يُتلى به العبد، كما ثبت ذلك عن الأئمة، حتى قال الشافعي: "ما ارتدى أحد

بالكلام فأفلح"، وقال الإمام أحمد: "عاقبة الكلام لا تؤول إلى خير"، وكلام الأئمة في تقرير هذا المعنى كثير جداً.

٨. منتهى عقول المتكلمين كما شهد بذلك كبار أعيانهم: (ظنون وحسابات، وأوهام وخیالات) لا تؤدي للطمأنينة والاستقرار، والثبات واليقين.

٩. اعترف كبار المتكلمين بتملك الحيرة لهم، واستيلاء الشك عليهم، وفقدانهم اليقين والطمأنينة في المطالب التي أفنوا أعمارهم فيها، وهو ما يُعد خلاصة تجاربهم وأبحاثهم، جرّاء تعلم علم الكلام المذموم والإقبال عليه، ومن تبحر منهم في الكلام ازداد حيرة، حتى ندم بعضهم على سلوكه طريقة المتكلمين.

وحكى جمع من الأئمة شهاداتهم بذلك على أنفسهم، ومن أكثر من وظف هذا الأمر في مناقشة المتكلمين: ابن تيمية -رحمه الله- وذلك في عدد من مصنفاته؛ حتى قال: "ولو جمعت ما بلغني في هذا الباب عن أعيان هؤلاء كفلان وفلان؛ لكان شيئاً كثيراً، وما لم يبلغني من حيرتهم وشكهم أكثر وأكثر".

١٠. شهد أعيان المتكلمين بأنّ (عقيدة المتكلم كخيطة مرسل في الهواء؛ تفيئه الرياح؛ مرة هكذا، ومرة هكذا)، هذا بلسان المقال تارة، وبلسان الحال تارات.

١١. الناظر فيما وصل إليه المتكلمون من الحيرة والاضطراب، والمتأمل في حكايتهم وما دونوه وشهدوا به على أنفسهم؛ يجد أنّ لذلك أسباباً عدّة أوصلتهم إلى هذه الحيرة، منها: الاستغراق في النظر العقلي، وتكافؤ الأدلة العقلية، والتشويش بإيراد الاعتراضات على المسائل والنصوص، وإهمال الأدلة الشرعية، والبعد عن طريقة السلف الصالح، وهي أحسن الطرق وأعدلها وأقومها، وفيها العلم والحكمة.

١٢. كان لهذه الحيرة مآلاتها المؤثرة على المتكلمين، ومآلات الحيرة يُراد بها: النتائج والآثار والأمور الحاصلة منها، ومن هذه المآلات: التَّنَقُّلُ والتحوُّل؛ حتى انتهى بعضهم في آخر أمره إلى (دين العجائز)، فيقر بما أقروا به، ويعرض عن تلك الدقائق والغوامض، وهو منتهي ما يحصلونه بعد الكد والجهد، إضافة إلى ذم الكلام، والتحذير من

الاشتغال به من كبار أهله ورواده، وهذا خلاف المعهود في جميع العلوم، وقد أكثر المتكلمون من ذم الكلام بعد الحيرة والندم، حتى تمنى بعضهم إحراق ما دون من مصنفات في علم الكلام بعد هجره، كما أنَّ من مآلات الحيرة المؤثرة: إهمال العمل أو التقصير فيه، والانشغال باتباع الشهوات، وبقي بعضهم في هذه الحيرة، وجعلها منتهى العلم والغاية.

١٣. دراسة عواقب ومآلات العلوم العقلية على أهلها من الأهمية بمكان، ولا سيما لغير المختصين؛ الذين قد يحسنون الظن بهذه العلوم، ويظنون فيها الرسوخ واليقين، والتميز لأهلها عن غيرهم، وربما فضلها بعضهم على الكتاب والسنة، وعلى طريقة السلف الصالح.

والله تعالى أعلم، وهو الهادي للحق والصواب، وصلى الله وسلم على نبينا محمد.

فهرس المصادر والمراجع

- الإبراهيمي، مُجَّد بن بشير، "آثار الإمام مُجَّد البشير الإبراهيمي". (ط١، دار الغرب الإسلامي، ١٩٩٧م).
- البلخي، عبدالله بن أحمد بن مُجَّد، "كتاب المقالات ومعه عيون المسائل والجوابات". (ط٢، عمّان، دار الفتح للدراسات والنشر، ١٤٤٢هـ).
- ابن أبي العز، مُجَّد بن علاء الدين، "شرح العقيدة الطحاوية"، تحقيق: أحمد مُجَّد شاكر. (ط١، الرياض، وزارة الشؤون الإسلامية، ١٤١٨هـ).
- ابن الجوزي، عبدالرحمن بن علي، "تلبس إبليس". (ط١، بيروت، دار الفكر للطباعة، ١٤٢١هـ).
- ابن الوزير، مُجَّد بن إبراهيم، "العواصم والقواصم في الذب عن سنة أبي القاسم"، تحقيق: شعيب الأرنؤوط. (ط٣، بيروت، الرسالة، ١٤١٥هـ).
- ابن الوزير، مُجَّد بن إبراهيم، "الروض الباسم في الذب عن سنة أبي القاسم"، عناية: علي العمران. (ط١، دار عالم الفوائد).
- ابن الوزير، مُجَّد بن إبراهيم، "إيثار الحق على الخلق". (ط٢، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٩٨٧م).
- ابن بطة، عبيدالله بن مُجَّد، "الإبانة الكبرى"، تحقيق: رضا معطي وآخرون. (ط٢، الرياض، دار الراية، ١٤١٥هـ).
- ابن تيمية، أحمد بن عبد الحلیم بن عبد السلام، "مجموع الفتاوى"، تحقيق: عبدالرحمن بن قاسم. (ط١، المدينة المنورة، مجمع الملك فهد، ١٤١٦هـ).
- ابن تيمية، أحمد بن عبد الحلیم بن عبد السلام، "الصفدية". تحقيق: مُجَّد رشاد سالم. (ط٢، مصر، مكتبة ابن تيمية، ١٤٠٦هـ).
- ابن تيمية، أحمد بن عبد الحلیم بن عبد السلام، "الفتاوى الكبرى". (ط١، دار الكتب العلمية، ١٤٠٨هـ).
- ابن تيمية، أحمد بن عبد الحلیم بن عبد السلام، "الفتوى الحموية الكبرى"، تحقيق: حمد بن عبدالمحسن التويجري. (ط٢، الرياض، دار الصميعي، ١٤٢٥هـ).

ابن تيمية، أحمد بن عبدالحليم بن عبدالسلام، "بيان تلبس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية". (ط ١، المدينة المنورة، مجمع الملك فهد، ١٤٢٦هـ).

ابن تيمية، أحمد بن عبدالحليم بن عبدالسلام، "جامع المسائل". تحقيق: محمد عزيز شمس. (ط ١، مكة المكرمة، عالم الفوائد، ١٤٢٢هـ).

ابن تيمية، أحمد بن عبدالحليم بن عبدالسلام، "شرح العقيدة الأصفهانية"، تحقيق: محمد الأحمد. (ط ١، بيروت، المكتبة العصرية، ١٤٢٥هـ).

ابن تيمية، أحمد بن عبدالحليم بن عبدالسلام، "درء تعارض العقل والنقل"، تحقيق: محمد رشاد سالم. (ط ٢، المملكة العربية السعودية، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ١٤١١هـ).

ابن تيمية، أحمد بن عبدالحليم بن عبدالسلام، "منهاج السنة النبوية"، تحقيق: محمد رشاد سالم. (ط ١، الرياض، جامعة الإمام محمد بن سعود، ١٤٠٦هـ).

ابن خلدون، عبدالرحمن بن محمد، "المقدمة"، تحقيق: خليل شحادة. (ط ٢، بيروت، دار الفكر، ١٤٠٨هـ).

ابن دريد الأزدي، محمد بن الحسن، "جمهرة اللغة"، تحقيق: رمزي منير بعلبكي. (ط ١، بيروت، دار العلم، ١٩٨٧م).

ابن عبد البر، يوسف بن عمر، "جامع بيان العلم وفضله"، تحقيق: أبي الأشبال الزهيري. (ط ١، الرياض، ابن الجوزي، ١٤١٤هـ).

ابن عثيمين، محمد بن صالح، "فتح رب البرية". (ط ١، الرياض، دار الوطن).
ابن عساكر، علي بن الحسن، "تبيين كذب المفتري". (ط ٢، بيروت، دار الكتاب العربي، ١٤٠٤هـ).

ابن فارس، أحمد بن فارس، "مقاييس اللغة"، تحقيق: عبد السلام هارون. (دار الفكر، ١٣٩٩هـ).

ابن قتيبة الدينوري، عبدالله بن مسلم، "تأويل مختلف الحديث". (ط ٢، المكتب الإسلامي، ١٤١٩هـ).

ابن قدامة، عبدالله بن أحمد، "تحريم النظر في كتب الكلام"، تحقيق: عبدالرحمن

- دمشقية. (ط ١، الرياض، عالم الكتب، ١٤١٠هـ).
- ابن قيم الجوزية، مُحمَّد بن أبي بكر بن أيوب، "اجتماع الجيوش الإسلامية". تحقيق: عواد المعنق. (ط ١، الرياض، طابع الفرزدق، ١٤٠٨هـ).
- ابن قيم الجوزية، مُحمَّد بن أبي بكر بن أيوب، "الصواعق المرسلّة في الرد على الجهمية والمعتلة"، تحقيق: علي بن مُحمَّد الدخيل الله. (ط ١، الرياض، دار العاصمة، ١٤٠٨هـ).
- ابن قيم الجوزية، مُحمَّد بن أبي بكر بن أيوب، "زاد المعاد في هدي خير العباد". (ط ٢٧، بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٤١٥هـ).
- ابن قيم الجوزية، مُحمَّد بن أبي بكر بن أيوب، "طريق المهجرتين". (ط ٢، القاهرة، دار السلفية، ١٣٩٤هـ).
- ابن قيم الجوزية، مُحمَّد بن أبي بكر بن أيوب، "مدارج السالكين"، تحقيق: مُحمَّد البغدادي. (ط ٣، بيروت، الكتاب العربي، ١٤١٦هـ).
- ابن قيم الجوزية، مُحمَّد بن أبي بكر بن أيوب، "مفتاح دار السعادة". (ط ١، بيروت، دار الكتب العلمية).
- ابن كثير، إسماعيل بن عمر، "تفسير القرآن العظيم"، تحقيق: مُحمَّد حسين شمس الدين. (ط ١، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤١٩هـ).
- ابن منظور، مُحمَّد بن مكرم، "لسان العرب". (ط ٣، بيروت، دار صادر، ١٤١٤هـ).
- أبو الفضل المقرئ، عبدالرحمن بن أحمد، "أحاديث في ذم الكلام وأهله". تحقيق: ناصر الجديع. (ط ١، دار أطلس، ١٤١٧هـ).
- أبو حامد الغزالي، مُحمَّد بن مُحمَّد، "المقصد الأسنى"، تحقيق: بسام الجابي. (ط ١، بيروت، دار ابن حزم، ١٤٢٤هـ).
- أبو حامد الغزالي، مُحمَّد بن مُحمَّد، "المنقذ من الضلال"، تحقيق: عبدالحليم محمود. (ط ١، مصر، دار الكتب الحديثة).
- أبو حامد الغزالي، مُحمَّد بن مُحمَّد، "قواعد العقائد"، تحقيق: موسى علي. (ط ٢، لبنان، عالم الكتب، ١٤٠٥هـ).
- أبو حامد الغزالي، مُحمَّد بن مُحمَّد، "ميزان العمل"، تحقيق: سليمان دنيا. (ط ١، مصر،

- دار المعارف، ١٩٦٤م).
- الأزهري، مُحمَّد بن أحمد، "تهذيب اللغة"، تحقيق: مُحمَّد عوض. (ط١، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ٢٠٠١م).
- الإسفرائيني، طاهر بن مُحمَّد، "التبصير في الدين"، تحقيق: كمال الحوت. (ط١، لبنان، عالم الكتب، ١٤٠٣هـ).
- الإمام أحمد، أحمد بن حنبل، "الرد على الجهمية والزنادقة"، تحقيق: صبري شاهين. (ط١، الرياض، دار الثبات، ١٤٢٤هـ).
- الإيجي، عبدالرحمن بن أحمد، "المواقف". (ط١، بيروت، عالم الكتب).
- باصمد، وليد بن صالح، "أثر علم الكلام على المنتسبين إليه". (ط١، الرياض، مكتبة الرشد، ١٤٤٦هـ، ٢٠٢٥م).
- البخاري، مُحمَّد بن إسماعيل، "خلق أفعال العباد"، تحقيق: عبدالرحمن عميرة. (ط١، الرياض، دار المعاف السعودية).
- البغدادى، عبدالقاهر بن طاهر، "الفرق بين الفرق". (ط٢، بيروت، دار الآفاق، ١٩٧٧م).
- البغوي، الحسين بن مسعود، "معالم التنزيل في تفسير القرآن"، تحقيق: عثمان ضميرية. (ط٤، دار طيبة للنشر، ١٤١٧هـ).
- التفتازاني، مسعود بن عمر، "شرح المقاصد"، تعليق: إبراهيم شمس الدين. (ط١، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤٢٢هـ).
- التهانوي، مُحمَّد بن علي، "كشف اصطلاحات الفنون والعلوم"، تحقيق: علي دحروج. (ط١، مكتبة لبنان ناشرون، ١٩٦٩م).
- التيمي، إسماعيل بن مُحمَّد، "الحجة في بيان المحجة"، تحقيق: مُحمَّد ربيع المدخلي. (ط٢، الرياض، دار الراية، ١٤١٩هـ).
- جابر إدريس، "منهج السلف والمتكلمين في موافقة العقل للنقل". (ط١، الرياض، أضواء السلف، ١٤١٩هـ).
- الجوهري، إسماعيل بن حماد، "الصحاح تاج اللغة"، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار. (ط٤، بيروت، دار العلم، ١٤٠٧هـ).

خوجه، لطف الله بن عبد العظيم، "علة ذم السلف لعلم الكلام". (مجلة الدراسات العقديّة، العدد: ٣١، رجب: ١٤٤٤هـ).

الذهبي، مُحمَّد بن أحمد، "العلو للعلي الغفار"، تحقيق: أشرف عبدالمقصود. (ط١)، الرياض، أضواء السلف، ١٤١٦هـ).

الذهبي، مُحمَّد بن أحمد، "تاريخ الإسلام"، تحقيق: بشار عواد. (ط١)، دار الغرب، ٢٠٠٣م).

الذهبي، مُحمَّد بن أحمد، "وفيات الأعيان"، تحقيق: إحسان عباس. (ط١)، دار صادر، ١٩٩٤م).

الرازي، مُحمَّد بن عمر، "المطالب العالية من العلم الإلهي"، تحقيق: أحمد حجازي السقا. (ط١)، دار الكتاب العربي، ١٤٠٧هـ).

الرازي، مُحمَّد بن عمر، "ذم لذات الدنيا"، تحقيق: أيمن شحادة. (هولندا، طبعة ليدن، بريل، ٢٠٠٦م).

الزبيدي، مُحمَّد بن عبد الرزاق، "تاج العروس من جواهر القاموس"، مجموعة من المحققين. (دار الهداية).

الزركان، مُحمَّد بن صالح، "فخر الدين الرازي وآراؤه الكلامية والفلسفية". (ط١)، بيروت، دار الفكر، ١٩٦٣م).

السبكي، عبد الوهاب بن علي، "طبقات الشافعية الكبرى"، تحقيق: محمود الطناحي. (ط٢)، هجر للطباعة والنشر، ١٤١٣هـ).

السبكي، علي بن عبد الكافي، "السيف الصقيل في الرد على ابن زقيل"، تحقيق: مُحمَّد بن زاهد الكوثري. (ط١)، المكتبة الأزهرية للتراث).

السعدي، عبد الرحمن بن ناصر، "تيسير الكريم الرحمن"، تحقيق: عبد الرحمن اللويحق. (ط١)، مؤسسة الرسالة، ١٤٢٠هـ).

السفاريني، مُحمَّد بن أحمد بن سالم، "لوامع الأنوار البهية". (ط٢)، دمشق، مؤسسة الخافقين، ١٤٠٢هـ).

السمعاني، منصور بن مُحمَّد، "تفسير القرآن"، تحقيق: ياسر بن إبراهيم. (ط١)،

- الرياض، دار الوطن، ١٤١٨هـ).
- السمعاني، منصور بن مُجَدِّ، "قواطع الأدلة في الأصول"، تحقيق: مُجَدِّ الشافعي. (ط١، دار الكتب العلمية، ١٤١٨هـ).
- الشهرزوري، مُجَدِّ محمود، "نزهة الأرواح"، تحقيق: خورشيد أحمد. (ط١، دائرة المعارف، ١٣٩٦هـ).
- الشهرستاني، مُجَدِّ بن عبدالكريم، "نهاية الاقدام في علم الكلام"، تحقيق: ألفريد جيوم. (ط١، القاهرة، مكتبة الثقافة، ١٤٣٠هـ).
- الشوكاني، مُجَدِّ بن علي، "التحفي في مذاهب السلف"، تحقيق: سيد عاصم. (ط١، طنطا، دار الصحابة، ١٤٠٩هـ).
- الصفدي، خليل بن أبيك، "الوافي بالوفيات"، تحقيق: أحمد الأرناؤوط. (ط١، دار إحياء التراث، ١٤٢٠هـ).
- الطبري، مُجَدِّ بن جرير، "جامع البيان"، تحقيق: أحمد شاكر. (ط١، لبنان، مؤسسة الرسالة، ١٤٢٠هـ).
- الطحاوي، أحمد بن مُجَدِّ، "العقيدة الطحاوية"، تعليق: مُجَدِّ ناصر الدين الألباني. (ط٢، بيروت، المكتب الإسلامي، ١٤١٤هـ).
- العباد، عبدالمحسن بن حمد، "قطف الجنى الداني". (ط١، الرياض، دار الفضيلة، ١٤٢٣هـ).
- العز بن عبدالسلام، عبدالعزيز بن عبدالسلام، "قواعد الأحكام في مصالح الأنام"، تحقيق: طه سعد. (ط١، القاهرة، الكليات الأزهرية، ١٤١٤هـ).
- الفراهيدي، الخليل بن أحمد، "كتاب العين"، تحقيق: مهدي المخزومي. (ط١، بيروت، دار ومكتبة الهلال).
- القحطاني، مُجَدِّ بن صالح، "القصيدة النونية"، تحقيق: عبدالعزيز الجربوع. (ط١، الرياض، دار الذكرى، ١٤٢٦هـ).
- القرطبي، أحمد بن عمر، "المفهم لما أشكل من صحيح مسلم"، تحقيق: محيي الدين مستو. (ط٢، دار ابن كثير، ١٤٢٠هـ).
- مصطفى عبدالرزاق، "تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية". (ط١، القاهرة، مكتبة

الثقافة، ١٩٤٤م).

المعلمي، عبدالرحمن بن يحيى، "القائد إلى تصحيح العقائد"، تحقيق: مُحمَّد ناصر الدين الألباني. (ط٣، المكتب الإسلامي، ١٤٠٤هـ).

الملطي، مُحمَّد بن أحمد، "التنبيه والرد على أهل الأهواء والبدع"، تحقيق: مُحمَّد زاهد الكوثري. (ط١، مصر، المكتبة الأزهرية).

المنشلي، أحمد بن تركي، "شرح المنظومة الجزائرية في العقائد"، تحقيق: محمود عبدالصادق الحساني. (ط١، دار الضياء للنشر، ١٤٣٨هـ).

النعمي، عيسى بن محسن، "القوادح السلفية في مشروعية علم الكلام". (مجلة الدراسات العقدية، العدد: ٣٠، محرم: ١٤٤٤هـ).

هراس، مُحمَّد بن خليل، "شرح الواسطية"، تحقيق: علوي السقاف. (ط٣، الخبر، دار الهجرة للنشر، ١٤١٥هـ).

الهروي، عبدالله بن مُحمَّد، "ذم الكلام وأهله"، تحقيق: عبدالرحمن الشبل. (ط١، العلوم والحكم، ١٤١٨هـ).

الواسطي، أحمد بن إبراهيم، "النصيحة في صفات الرب"، تحقيق: زهير الشاويش. (ط٢، بيروت، المكتب الإسلامي، ١٣٩٤هـ).